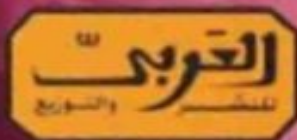


الكاتب الحائز
على جائزة
نوبل للآداب
2019

في ليلة مظلمة تركت منزلي الصامت

بيتر هاندكه

ترجمة: د. معتز المغاوري



روايات مترجمة

في ليلة مظلمة تركنت منزلي الصامت

بيتر هاندكه

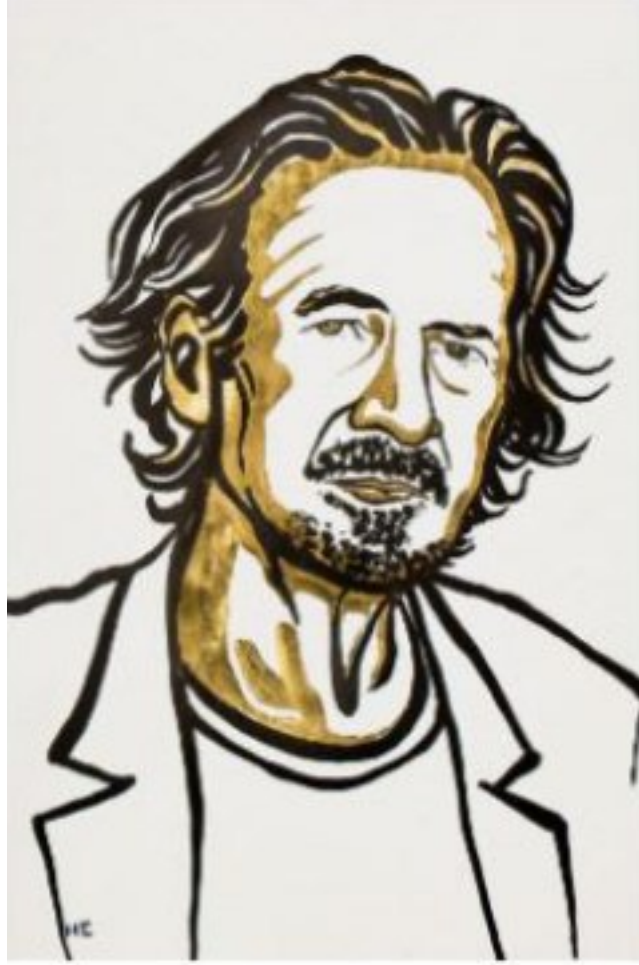
ترجمة: د. معتز المغاوري
العربي للنشر والتوزيع

2021

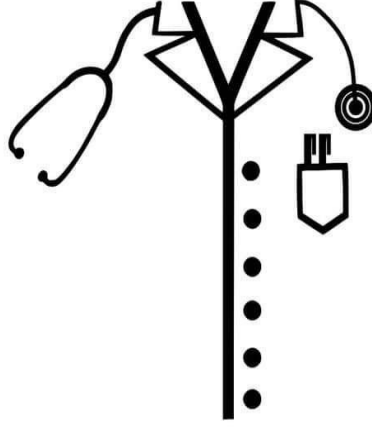


كيندليون

مكتبة



هذه القصة لها علاقة بمنطقة «تاكسهام» الواقعة بالقرب من مدينة سالزبورج، وربما تكون لها علاقة بسيطة - أو ربما ليس لها علاقة - بصيدلي أو بشخص ما يعيش هناك.



في الوقت الذي وقعت فيه أحداث هذه القصة كادت منطقة «تاكسهام» أن تكون منسية. حتى أن أغلب سكان مدينة «سالزبورج» القريبة لم يكن باستطاعتهم أن يقولوا أين تقع هذه المنطقة، بل إن الاسم كان يبدو غريبًا لكثير من الناس. «تاكسهام»؟ «برمنجهام»؟ «نوتنجهام»؟ في الواقع كان أول فريق كرة قدم بعد الحرب يدعى «تاكسهام فورست» حتى تغير اسمه بعد صعوده من الدرجة الأدنى، وبعد صعوده المتتالي بمرور الأعوام إلى «فريق سالزبورج» (في تلك الأثناء ربما أعيدت تسميته بالاسم القديم).

في الحقيقة، كان من المألوف أن يرى الناس في وسط المدينة حافلات تحمل لافتة «تاكسهام» تمر بهم. لم تكن الحافلات ممتلئة أو خالية أكثر من غيرها، لكن لم يستقل أحد من سكان المدينة ذات مرة إحدى تلك الحافلات.

وعلى عكس القرى القديمة في محيط مدينة «سالزبورج»، لم تكن «تاكسهام» -التي تأسست حديثًا في فترة ما بعد الحرب- مقصدًا للزوار في أي وقت. فلا يوجد فندق يجذب الزوار، ولا معالم سياحية، وكذلك لا شيء ينفرهم منها. على الرغم من وجود قصر «كليسهام» وكازينو القمار ومبنى الاستقبال الحكومي الواقع مباشرة خلف الحقول، لم تكن «تاكسهام» حيًا أو ضاحية أو منطقة زراعية، وعلى العكس من المناطق الأخرى بالناحية، كان الزوار يتجاهلونها سواء من قريب أو بعيد. لا أحد يأتي زيارة إلا ويبقى فترة قصيرة لا تزيد عن ليلة، لأنه لا يوجد في «تاكسهام» أبدًا فندق - مما يمثل ميزة لمدينة «سالزبورج» - والأماكن المخصصة لإقامة الزوار، والأماكن البديلة تكون مشغولة. حتى اسم «تاكسهام» الذي يضيء واجهات الحافلات، التي تجوب المركز المظلم الهادئ ذهابًا وإيابًا حتى ساعة متأخرة من الليل - يبدو أنه لم

يجذب أحدًا بمرور السنين إلى المكان. والشخص المنفتح على العالم يقول حين يسأل عن «تاكسهام»: «لا أعرفها»، أو يكتفي بهز كتفيه.

أنا وصديقي «أندرياس لوزر» مدرس اللغات القديمة ورجل الاقتصاد التاشئ - كما يطلق على نفسه - كنا الغربيين الوحيدين اللذين جاءا إلى «تاكسهام» أكثر من مرة. في زيارتي الأولى لـ«تاكسهام» نزلت في الشارع الرئيس وهو «كليسهامر ألپه» (لا أثر لقصر أو طريق ذي أشجار) في بار، حيث كرر رجل لساعة، كيف أنه ينوي أن يقتل شخصًا ما قائلًا: «ليس أمامي خيار آخر». كان «أندرياس لوزر» هو من همس في أذني في أمسية شتوية في مطعم «مطار سالزبورج» الذي كان خاليًا تقريبًا (في تلك الفترة كان أكبر من صالة الوصول) قائلًا:

- انظر، هناك في الجهة المقابلة يجلس صيدلي «تاكسهام».

في تلك الأثناء، غادر صديقي «لوزر» لا أعرف إلى أين. كنتُ بعيدًا عن «سالزبورج» لفترة طويلة للغاية. وصيدلي «تاكسهام» الذي التقينا به حينها مرات غير قليلة، اختفى في الفترة التي وقعت فيها أحداث هذه القصة، ولم نسمع عنه لفترة طويلة.

تبدو «تاكسهام» وكأنها من الصعب الوصول إليها، وهذا بسبب موقعها؛ يقع الذنب أيضًا على القرية نفسها.

إن ما تواجهه مثل تلك المناطق اليوم كان معروفًا منذ البداية؛ منعزلة أو على الأقل يمكن الوصول إليها بصعوبة من الأماكن المحيطة بها، ومن الأماكن المجاورة فقط عن طريق خطوط المواصلات المتاحة. بالنسبة للأماكن البعيدة، يصعب الوصول إليها سيرًا على الأقدام أو بالدراجة. وعلى العكس من القرى التي دُفعت مع مرور الوقت إلى عالم مثلث، فأصبحت منعزلة، وصُيق عليها الخناق من جميع المحاور المتزايدة، نشأت «تاكسهام» داخل تلك الحواجز. فعلى الرغم من أنها تقع في سهل نهر كبير وعلى أعتاب مدينة كبيرة، فإنها تشبه المخيمات والثكنات العسكرية. يوجد كذلك في المنطقة المحيطة بها مباشرة على مقربة من الحدود مع ألمانيا ثلاث ثكنات عسكرية، وواحدة منها تقع داخل حدود القرية، بالإضافة إلى خط قطار المسافات البعيدة اتجاه ميونخ كواحد من الحدود الواقعة قبل «تاكسهام». ويرجع تاريخه إلى ما قبل نشأة القرية بفترة طويلة، وكذلك الطريق السريع والذي أنشئ قبل الحرب العالمية الثانية في عهد الرايخ الثالث (والذي لا يزال بعد عشرات السنين يحمل نسر الرايخ، وفي مخالفه الصليب المعقوف. وتاريخ تأسيس الطريق محفور على جانب النفق الضيق) بالإضافة إلى المطار الذي أنشئ في أثناء الجمهورية النمساوية الأولى، ويجعل الوصول إلى القرية صعبًا من الأمام.

تقع مدينة «تاكسهام» في هذا المثلث بين خطوط النقل، ويمكن الوصول إليها فقط عبر طرق وعرة ومتعرجة للغاية وأنفاق، ولهذا لا تبدو «تاكسهام» من النظرة الأولى فقط كجيب داخلي. جيب داخلي لمن؟ وتتبع من؟ على الأرجح أنها تتبع مدينة «سالزبورج» أكثر من أي مكان آخر، وهي مستعمرة للاجئين الحرب والمشردين والمهاجرين. بالتأكيد، كان الصيدلي واحدًا من هؤلاء، فرد في أسيرة كانت تدير مصنعًا للأدوية في الشرق في عصر إمبراطورية «هابسبورغ»، ثم في جمهورية تشيكوسلوفاكيا، ثم تحت الاحتلال الألماني.

لم أريد أن أعرف معلومات أكثر عنه من أجل قصته هنا، وجاء رد فعله «لنكتفي بهذا القدر، لنترك باقي المعلومات في طي النسيان».

هؤلاء الوافدون الجدد لم يقيموا فقط بعد الحرب في المثلث المتكون من أرصفة القطارات البعيدة والطريق السريع والمطار، في استراحة المقاطعة الزراعية هناك، والمزارع التي تحمل أسماء بيوت «تاكسهام»، بل إنهم تحصنوا واحتموا هناك.

بعد التغلب على عوائق الوصول الخارجية إلى «تاكسهام» يظهر شيء مثل حزام حاجز آخر، لم يضعه إنسان، بل هو من صنع الطبيعة. سواء خلف جسر السكة الحديد أو خلف سياج مدرج المطار؛ «تاكسهام» بأكملها تبدو بعده محاطة مرة ثانية في دائرتها الداخلية بالحواجز، ومحاطة بسور، لا يتكون من الأسلاك، بل من سياج من الخشب القوي المتشابك يصل ارتفاعه لارتفاع الأشجار، ولا يلوح في الأفق خلفه سوى برج لكنيسة كاثوليكية شُيدت بعد الحرب (أما برج الكنيسة البروتستانتية فلا يمكن رؤيته من مسافة).

والأرض الواقعة بين نظامي الحماية؛ الخارجي المفروض والداخلي ذاتي الصنع، تُستخدم كملعب كرة قدم، وطريق للتنزه أو حقل متهالك، ويظل الجزء الخاص بساحة السيرك - الذي يأتي سنويًا لبضعة أيام ليقيم عروضه في الخلاء - مخططًا بعلامات واضحة. وهكذا تشبه هذه الأرض بأكملها الحصن.

وبطريقة أخرى، كانت «تاكسهام» قبل نصف قرن - حتى وإن كانت على نطاق صغير - طليعة للكثير من المستوطنات الحالية، ويُطلق عليها أيضًا «المدن الجديدة». يصعب الوصول إليها، والأصعب الخروج منها مرة أخرى سواء بالسير على الأقدام أو بالسيارة. فكل الطرق تقريبًا التي تُبْنَى بهذا، تنعطف ثم تقودك حول مجموعة المنازل أو بين حدائق المنازل الصغيرة لتعيدك إلى نقطة البداية من جديد، أو أنها تنتهي أمام سياج لا يمكن اجتيازه وتظهر من خلفه الحقول. وقد سُمي شارع القرية على اسم «ماجلان» أو «بورش».

في الواقع تحمل معظم الشوارع (أو الطرق الجانبية) بـ«تاكسهام» ذات السياج النباتي أسماء رواد الطيران، وذلك بسبب المطار القريب مثل «جراف زيلين»، و«أوتو فون ليليانتهال»، و«مارسل ريبارد»، وكانا من المهاجرين بعد

الحرب. قُرِضت تلك الأسماء دون أن يطلبوا ذلك، بل ربما كانوا هم أنفسهم يفضلون أن يطلقوا اسم «جوتشر» و«المواطنين السبعة» على الشوارع، من يعرف؟ قال صديقي «أندرياس لوزر» ذات مرة أن «نونجيسر» و«كولي» ربما يكونا الطيارين الوحيديين اللذين يمكن إعطاء اسمهما لشارع.. بعد أن فقدوا فوق المحيط الأطلنطي في محاولة رحلة الطيران الأولى من أوروبا إلى أمريكا، وذلك بعد مغادرتهما اليابسة.

وهناك أمر ثالث كانت «تاكسهام» تمثل فيه ظاهرة معاصرة منذ بداياتها وكان لها السبق فيه، وقد أصبح هذا الأمر معتادًا اليوم بكثرة؛ ألا تسكن في المكان الذي تعمل فيه. وهكذا كانت القاعدة بين العاملين في مستعمرة المثلث والسياح منذ ذلك الوقت قبل خمسين عامًا، هي الإقامة والسكن في مكان آخر ليس بعيدًا عن «تاكسهام»، ولكن ليس في المدينة نفسها. حتى التاجر وصاحب المطعم كانوا يأتون بالنهار فقط من أجل العمل. وكذلك أحد الكهنة المعينين من أجل المدينة وكنت أعرفه جيدًا، كان يأتي فقط من أجل القداس، ويعيش في المدينة حيث ينتقل من مكان إلى آخر بلا هدف (ترددت بعض الأقاويل بأنه تخلى عن منصبه منذ فترة طويلة).

كان منزل الصيدلي كذلك يقع خارج «تاكسهام» في إحدى القرى الزراعية بالقرب من نهر «سالاتش» قبل التقائه بنهر «سالزك» في المثلث الطبيعي هناك.

كان مرتبطًا في اختيار سكنه بمكان عمله. سارت حياته في مثلث بين المنزل الواقع بالقرب من جسر النهر، والصيدلية والمطار حيث كان يتناول العشاء هناك بانتظام؛ مرة مع زوجته ومرة ثانية مع عشيقته. عندما قابلناه بالصدفة، كانت قصته تدور في وقت مغاير تمامًا.

أسس أخوه الأكبر الصيدلية وكانت أول مؤسسة تجارية في مستوطنة «تاكسهام» الجديدة بعد الحرب، أو أول مؤسسة عامة مفتوحة للجمهور قبل المدرسة والكنيستين وكذلك قبل أي محل. لم يوجد كذلك مخبز قبلها (كان السُّكَّان يشترون الخبز في البداية من المزرعة). كانت الصيدلية لفترة طويلة أول منفذ خدمات لمهاجري ما بعد الحرب. كانت في البداية - بناءً على كلام أحد معارفي - محل سخرية لكونها منزل للطب في بلدة مهجورة، ثم تحولت بالتدريج إلى مركز تجمع مؤقت.

ما زال يمكنك أن تشعر بهذا بعد مرور عشرات السنين؛ على الرغم من اختفاء أي مظهر للزراعة في تلك الأثناء في المجتمع المحاط بأبراج الكنيسة والسوبر ماركت، فإن صيدلية «تاكسهام» تجعلك تتخيل مركز القرية أكثر من أن تراه.

إلا أن هذا لا يرجع إلى البناء، فالبناء يشبه كشكًا صغيرًا ومناسبًا لبيع السجائر والصحف، وكذلك في الداخل لا يوجد الرونق المظلم، والمتطور، والمتحفي للكثير من الصيدليات القديمة، ولا التنوع المضيء الملون - أين أنا؟ في حمام شمسي؟ في محل عطور؟ في كوخ على الشاطئ؟ - لبعض الصيدليات الحديثة الجديدة.

كانت الصيدلية تبدو من الداخل بلا لون وغير منمقة، لا شيء واحد.. سواء دواء أو معجون أسنان مسلط عليه الضوء، وكل شيء خلف الحواجز والفاترينات الضخمة وُضع على مسافة إلى الداخل، كأنها ليست بضاعة، وليست معروضة للبيع، بل ترسانة محظورة يحرسها اثنين أو ثلاثة يرتدون الزي الأبيض. وكذلك لا توجد عتبة خاصة في مدخل الصيدلية، بناءً على كلام «أندرياس لوزر»، إن عتَب الصيدليات في العالم كله تقريبًا مميز؛ لا يتسم بالفخامة ولا يتعثر فيه الناس، بل فيها رسومات وزخرفة وأشكال أكثر من مدخل المنازل، وفي الصيدليات تكون أكثر عمقًا من الكنائس، من دون العتبة ستشعر وكأنك في مخزن أدوية.

كانت صيدلية «تاكسهام» تحمل اسم «النسر». وأطلق عليها هذا الاسم الأخ الذي أسسها، والذي انتقل من الغرب إلى «مورناو» في «بافاريا» واستقر هناك مع بناته وأبنائه وأحفاده في صيدلية «الخنزير الأحمر»، لكن خليفته كان يرى أنه من الأفضل تسميتها «الأرنب» أو «القنفذ» نظرًا لأن شكلها يشبه الكشك أو متجر إلكترونيات صغير أو إذا كان الأمر متروكًا له لأسمائها على أسماء طبيعة أجداده؛ صيدلية «جبال تاترا».

لا، ما كان يميز الصيدلية عن غيرها ويجعلها رمزًا لـ«تاكسهام» هو موقعها هناك في وسط المكان كثير المباني مثل المدينة؛ في وسط قطعة من الأرض المغطاة بالحشائش وحقول شاسعة ممتدة بشكل لا يتناسب مع كوخ حجري، ومغطاة بنباتات وأشجار قديمة منخفضة وشجيرات، مثل بقايا سهول نباتية قديمة. قال الصيدلي بطريقة كلامه التي لا تبدو نمساوية خالصة:

- أحيانًا في الصباح حين أذهب إلى العمل أرى الدخان يتصاعد هناك من الكوخ.

كان الصيدلي يسلك الطرق نفسها ذهبا وإيابًا؛ من المنزل المطل على النهر إلى الصيدلية الواقعة خلف السياج، وفي المساء من الصيدلية بمحاذاة سياج مدرج المطار إلى المطار نفسه، وهكذا (حتى جاء يوم انتهى فيه كل هذا). كان يذهب إما سيرًا على الأقدام أو بسيارة كبيرة - دائمًا أحدث موديل - لكن أيضًا بدراجة سوداء ثقيلة ماركة «فلاينج دوتشمان». قابلته بضع مرات بالصدفة في الطرق الزراعية فوق دراجة بخارية يتطاير تحتها الطين. بدا في الوقت ذاته

متأملًا أو وكأنه عائد من رحلة صيد بري (و ذات مرة رأيت في حلم يهبط أمام الصيدلية بمنطاد خاص، وترك المنطاد في قطعة الأرض المغطاة بالحشائش).

بطبيعة الحال، كان سكان «تاكسهام» يأتون إلى الصيدلي قبل أن يبحثوا عن طبيب، ربما على أمل أن يوفر أجرة الطبيب، لكن الأقل شيوعًا كان أن يطلبوا منه المشورة والمساعدة بعد ذلك. يقول الصيدلي:

- أصبح الأطباء متخصصين أكثر. أحيانًا، أتوهم بأنني أمتلك نظرة عامة يفتقر لها الأطباء. علاوة على أن المرضى لا يخشون مني أن أقدم لهم نصيحة طبية أو أن أتدخل جراحياً، وأحيانًا أستطيع مساعدتهم بالفعل.

كان يمكن أن يحدث هذا، بل وحدث عن طريق حذفه لأدوية بدلًا من أن يضيف أدوية أو يستبدلها؛ لا يُحَصَّر كل ما هو مكتوب في رويشتة الطبيب، لكن بعض من هنا وبعض من هناك. يقول الصيدلي:

- إن عملي يعتمد بشكل ملح على الانتقاء والاستبعاد. إعطاء مساحة من الحرية.. ليس في الرفوف، ولكن في الأجساد. إعطاء مساحة وتمهيد الطريق.. وبالتأكيد أيها السادة كل شيء موجود عندي، إذا أصريتم على ذلك (عندما يحل الليل، يشبه المكان قبوًا مغلقًا بقضبان حديدية من الخارج، وبمزلاج من الداخل، ولا بد من تفجيرها، حتى تستطيع الدخول).

في الحقيقة، في المكان عدد غير قليل من الأشخاص الذين يتمكن من مساعدتهم بهذه الطريقة؛ لأنهم يسمحون له بمساعدتهم. وبهذه الطريقة لم يذع صيته عبر المنطقة وصار واضحًا أن صيدلي «تاكسهام» ليس بمعالج معجزة بأي حال.

كان السكان المحليون بمجرد خروجهم من باب الصيدلية ينسون على الفور العرفان بالجميل وينسونه كذلك. على العكس من طبيب «تاكسهام» والتاجر ولاعب الكرة، لم يكن الصيدلي شخصية عامة في الشوارع والمحلات. لا أحد يتحدث عنه، لا أحد ينصح بالذهاب إليه، لا أحد يمتدحه، لا أحد يسخر منه كما كان يحدث في المسرحيات الكوميديّة القديمة. من يلتقي به بالصدفة خارج مجال عمله، كان يتجاهله دون تعمد ذلك، أو إذا كان يعرفه فربما يضافحه قبل دخوله صيدليته ليشكره على شيء ما.. لكنه لا يكرر الأمر مرة ثانية.

والسبب في هذا لا يرجع فقط إلى أن الصيدلي لا يخرج أبدًا بالبالتو الأبيض، بل يرتدي بدلة وقبعة ومنديل جيب، ويسير بين المارة النادرين في «تاكسهام»، وينظر متفحصًا من أسفل إلى أعلى من سيقان الأطفال إلى مستوى قمم الأشجار وقطرات الأمطار وغبار الطريق، وبهذا يكون غير مرئي من منظور الأطفال. ولا بد أن نقول إنه لا يذهب في المساء إلى الصيدلية، ولا يتعرف بين الناس الموجودين بالخارج أبدًا على واحد من زبائنه أو مرضاه - على أقصى

تقدير السيد والسيدة «سوندسو» - على العكس من الطبيب، حين يغادر عيادته يظل طبييًا، فإن صيدلي «تاكسهام» حين يغلق الصيدلية يتوقف عن كونه صيدليًا. من وماذا يكون إذًا؟ لقد رأيت الأطفال ذات مرة يركضون نحوه. وفي حين أن الأطفال الذين يركضون نحو البالغين

2

الغرباء يسرعون من خطاهم عادة أمامهم، أبطأ هؤلاء الأطفال من خطواتهم حين وصلوا إليه، ثم نظروا إليه، ثم نظروا بعيدًا، ثم أعادوا النظر إليه مجددًا.

كانت أحداث القصة تدور في فصل الصيف. الحقول المحيطة بالمطار والقرية خلف السياج قد جُرَّتْ، سرعان ما نما العشب في تلك الأماكن من جديد، ومن بعيد تخلط بينه وبين القمح، على العكس من عشب الربيع الذي لا تنمو له زهور.. تراه كلون أخضر يتحرك في اتجاه الرياح وتتخلله ممرات رمادية اللون أو العكس.

علاوة على أن تلك الفترة من العام تكون بلا ثمار تقريبًا، جُمع محصول الكرز، أو التهمته الطيور وخاصة الغربان. والتفاح لم ينضج بعد، باستثناء التفاح الأبيض، مثل تلك الأشجار تكون نادرة أكثر من أي وقت آخر.

كانت المهرجانات قد بدأت في المدينة، في الشرق، لكن في حين كان للوديان الخلفية لجبال الألب والجانب الآخر من الممرات والأنفاق وجانبي النهر والحدود- نصيبٌ من تلك المهرجانات، لم تصل المهرجانات إلى «تاكسهام» القريبة. أعمدة الإعلانات بالخارج الموجودة على حافة الحقول والسياج يكون نصفها ممتلئًا بالملصقات طوال العام على أقصى تقدير، وأعمدة الإعلانات الموجودة على مدرج المطار والبرج كانت خالية منذ فترة طويلة.

وبالنسبة للطريق الممتد جنوب «تاكسهام»، أعلن مُنجم - يبدو أنه ينتمي إلى تلك المناطق - في بداية العام عن زلزال في الصيف، وقد حدث هذا الزلزال بالفعل للتو بالقرب من مدينة «كيب تاون». وبناءً على كلام المنجم فمن المنتظر أن تنشب حرب في غرب «تاكسهام» قبل نهاية الصيف، حرب ستستغرق ثلاثة أيام، لكن عواقبها لا نهائية.

كان الصيدلي يستيقظ مبكرًا كالمعتاد مع أولى صيحات الغربان، وزوجته ما زالت نائمة في النصف الآخر من المنزل. كانا يعيشان معًا في المنزل نفسه، ولكنهما منفصلان منذ ما يزيد عن عشر سنوات، كل منهما في جزء خاص به. كل

منهما يطرق الباب على الآخر. حتى في الحجرات المشتركة؛ مدخل المنزل، القبو والحديقة كانت توجد حوائط فصل مرئية وخفية. وفي الأماكن التي يصعب أن توجد فيها حوائط فصل مثل المطبخ كانا يراعيان فرق التوقيت في وجودهما، وهذا ما يفعلانه منذ أن انفصلا عن بعضهما وتباعدا، حيث يعيشان حياتهما اليومية مع مراعاة فرق التوقيت. حتى وإذا استيقظت الزوجة بشكل تلقائي في موعد استيقاظه نفسه، فإنها ربما تضطر الآن إلى أن تظل مستلقية في السرير. كما أنها تضطر للبقاء داخل المنزل، حين يذهب هو إلى الحديقة. وتضطر للذهاب إلى الحديقة، طالما بقي هو داخل المنزل. وتضطر إلى الذهاب في إجازة بمفردها كما خططت غداً، لأنه يرغب كما اعتاد كل سنة منذ فترة طويلة أن يقضي يوماً بمفرده في المنزل والحديقة في الصيف.

- لا.

قال الصيدلي:

- لا مشاكل بيننا. حياتنا سلمية تمامًا. هذا النظام نشأ دون تدخل من كلينا، ولا نلاحظه أيضًا على أقصى تقدير حين نستطيع أن نتشارك معًا في نوع من الانسجام لم نعرفه مسبقًا، ونعيش للحظات أشياء مشتركة بشكل مؤقت.

قالت زوجته:

- نعم، بشكل مؤقت. بين الباب ومفصلته، بين النافذة وكرسي الحديقة، بين الشجرة وفتحة القبو.

سألت:

- على سبيل المثال؟

الإجابة من جانبه ومن جانبها:

- دائمًا الصمت.

الإنصات المشترك لحديث الجيران، أو للناس الذين يسرون خلف السور فوق جسر النهر؛ خاصة حين يبكي طفل في مكان ما، عندما تدوي صافرة عربة الإسعاف، عندما يرى أحدهم من حجرته إشارة الطوارئ تضيء الجبال هناك على الجانب الآخر من الحدود. عندما جَرَف الفيضان بقرة نافقة في الربيع الماضي، عند تساقط الجليد لأول مرة.

- نعم؟ حسنًا. لا أعرف.

أشرقت الشمس.. لا أثر في الحديقة لقطرات الندى بعد الليلة الجافة الدافئة. انعكست أشعتها عن شجرة التفاح؛ درنة صمغية نبتت من جذر هناك وتبدو وكأنها تضيء الآن بفعل شعاع الشمس؛ لتشبه المصباح الصغير. وترتفع طيور السنونو في السماء المعتمة كما يحدث عند الغروب. وحين يفرد أحد

الطيور أجنحته عمودياً فوق الجبال، فإنها ترسل ضوءاً من الأعلى بفعل أشعة الشمس وانعكاسها على ريشها، وكأن الطائر يلعب بضوء الصباح.

اصطدمت رأسه بلطف بواحدة من التفاح كبير الحجم التي تدلت في مستوى جبهته وكأنه اصطدم بكرة، خرج متوجهاً إلى السد فوق النهر وترك رياح الصباح ورياح الجبل تجرفه. لا أحد غيره في الشارع. والمقاعد الخشبية تحتل - كما هو معتاد في الصيف - مكاناً أكبر من الشاطئ ومجرى النهر، وتمتد بعيداً على مرمى البصر بين الجبال الجيرية.

فكر الصيدلي في موته. وجاء على باله ابنه، لكنه لم يمت. لا، لقد «لفظه». أليست تلك الكلمة قاسية للغاية؟ لماذا لم يهجره فقط، يتجاهله وينساه؟

- لا، لقد لفظته.

قال:

- لقد لفظت ابني.

سبح في النهر البارد وسرت البرودة في عظامه؛ في البداية ضد التيار القوي، ثم ترك نفسه للتيار تحديداً عند حدود النهر، حيث الحدود مع ألمانيا. شجيرات النهر مرت بسرعة كبيرة كأنها تعدو. غطس الصيدلي برأسه عميقاً تحت الماء، لدرجة أن الحصى الصغير الموجود في قاع النهر دخل في أذنه حيث اصطدم ببعضه وأصدر صوت احتكاك وقعقة. بدا له أنه يستطيع أن يبقى تحت الماء دائماً من دون تنفس، وأن الحياة تحت الماء صارت حياته من الآن.

ثم أجبر الصيدلي نفسه على الاتجاه إلى ضفة النهر، قبل الحافة المنحدرة بقليل. شاهد طائرة تهبط من فوق قمم الأشجار ولاحظ خلف نافذة من نوافذ الطائرة وجه طفل. دائماً ما يرى بهذه الحدة وليس فقط بعد السباحة في النهر الجليدي. هكذا، ربما يبدو الاسم الذي أطلقه أخاه على صيدلية «تاكسهايم» مبرراً.

في المنزل، غسل جسده من ماء النهر الرمادي بسبب الجير وشرب القهوة التي أعدت في أثناء السباحة، قهوة «جامايكا بلو ماونت» وهي أفضل قهوة يستطيع الحصول عليها في تلك الناحية. لا صوت يأتي من الجناح الخاص بزوجته. حقيقة سفرها بالأسفل في مدخل المنزل وفوقها تذكرة طائرة، لكنه لم يلق نظرة عليها. قال:

- كالعادة، وقبل كل رحلة من رحلاتها تخطر ببالي فجأة صورة حقل الفراولة الذي حكى لي عنه ذات مرة، وكان المكان الذي تقضي فيه الصيف وهي طفلة.

هو نفسه كان يسافر كثيرًا في الماضي، تقريبًا في جميع أنحاء العالم، لكنه لم يعد يسافر إلى أي مكان. فهو يشعر هنا كل صباح وكأنه يسافر، أو أنه سافر

قبل فترة طويلة، والرحلة تنتقل اليوم إلى محطة جديدة. يقول:
- أردت البقاء هنا، لفترة أطول.

فوق السد المطل على النهر، ترى الآن عبر شجيرات الحديقة أول المارة، وتلاحظهم من ملابسهم الملونة فقط يسرون اثنين.. اثنين على الطريق الضيق خلف بعضهم (على الناحية الأخرى من الحقول في «تاكسهام» لا يوجد أحد تقريبًا في الطريق، ولا يتجه أحد إلى الحافلة) ويتحدثون بصوت مرتفع، كأنهم يعتقدون أن أصواتهم غير مسموعة.

ومن أحد الأراضي المجاورة، سمع صوت صراخ ثم بكاء طفل، وسمع الأصوات نفسها من منزل على الناحية الأخرى. أنصت واسترق السمع وكان متأكدًا من أن زوجته تقف هناك خلف الباب. أنصتًا معًا حتى هدا البكاء والنحيب على الجانبين، وتحولوا إلى حديث ونداء متبادل بأصوات واضحة تتأرجح بسبب الصراخ. كما سمعنا أيضًا القطار يمر على الجانب الآخر من ضفة النهر في ألمانيا. نعم، في اتجاه «باد ريشنهال».

في هذا الصباح، أخذ الصيدلي دراجة زوجته، فهي لن تحتاج إليها في الأسابيع القادمة. قاد الدراجة في طريق النهر، طريق يمر عبر السهل الفيضي، ثم انعطف عبر الحقول إلى قرية «زيتسهايم». على مقبرة هناك، نقش على صخرة لشخص مصلوب لكن من دون صليب - يمكنك إدراك هذا فقط من وضعية الجسد - رأس كبيرة للغاية على جسد قزم وذراعيه منبسطين بعيدًا عن بعضهما، فيما عدا ذلك كان من الصعب رؤية أي شيء آخر، حيث تأكل المكان بفعل عوامل التعرية. أما الأخاديد الموجودة بكتلة الصخور المتجهة إلى الشرق فقد أصبحت الآن في ضوء الصباح أكثر عمقًا ووضوحًا.

كان الصيدلي محققًا في مواصلة السفر ناحية الشرق في اتجاه الشمس، وهكذا يتجنب أن يكون ظله أمامه؛ فهذا المشهد يزعجه منذ فترة طويلة. انبعثت من الحشائش رائحة جفاف الأسابيع الماضية، كما كانت تنبعث الرائحة نفسها قبل ذلك من النهر ومن النقش الحجري. (ما حكاه عن سالزبورج والأمطار بها كان غير صحيح.) مرت حافلة محلية على الثكنات ذات اللون المموه بمدينة «زيتسهايم». كانت الحافلة ملونة ومزخرفة من أجل المهرجانات لتبدو وكأنها جزء من واجهات المباني المموهة. وظل طائرة على الأرض يبدو مثل رموش ترجف.

عند انعطافه إلى القرية المحاطة بسياج، أو كما يطلق عليها سرًا «الجزيرة المفقودة»، ألقيت عليه التحية بضع مرات متتالية وهذا نادرًا ما يحدث هناك، من ممشي «ليندبرج» إلى شارع «ليينثال» ذي الأشجار. إلقاء التحية كان بمنزلة مفاجأة للمارة. حتى اتضح للصيدلي أن إلقاء التحية موجه إلى الدراجة الثقيلة المعروفة محليًا، والتي يعود إنتاجها إلى فترة ما قبل الحرب. كانت الدراجة

مرتبطة في الحياة اليومية بزوجته الصيدلانية (كانت صيدلانية مثل جميع أفراد العائلة باستثناء الابن).

يعمل في الصيدلية سيدة عجوز ورجل شاب، يكاد يكون طفلاً - كانت السيدة والدته، وكان العمل في الصيدلة تقليدًا في عائلتهما أيضًا - انتظرا في البراري وسط القرية، ثم اتجاها كالعادة في الوقت المحدد إلى الصيدلية وجلسا أمام مدخلها المغلق بالقضبان.. الطقس معتدل. كانا قد جاءا قبل سنوات كثيرة بصفتها لاجئين فارين من الحرب الأهلية في الجنوب. أحضرا معهما من هناك لعنة العدو، لدرجة أن الصيدلية صارت ملجأهما الوحيد.

للصيدلي ابنة تعمل معه منذ فترة قصيرة؛ منذ نهاية دراستها، لكي تقضي فترة الصيف مع صديقها الذي كان صيدليًا أيضًا، بالإضافة إلى كونه عالم فيزياء، حيث إنه غادر الجزيرة المفقودة وانتقل إلى جزيرة أخرى.

بدا له عند مغادرتها أنها ذاهبة على مضض ولأول مرة تقلق بشأنه بشكل ملحوظ. في حين كان غيابها أو غياب الأشخاص القريبين منه - كما يعتقد - يحميه ويلزمه كذلك بأن يفعل كل شيء، أو أن يعيش بهدوء ومن دون قلق ويستمتع بالتنقل وبالجزيرة وبسعادته، كان الطرف الآخر يمكن أن يظل غائبًا لفترة طويلة.

قال إن غياب المقربين منه - الصيدلي ليس لديه أصدقاء، أو لا يمكنني تخيلهم على الأقل - كان يسبب له صدمة إضافية. أضاف:

- إذا كان بيدي أن أضع قانونًا للحياة أو للتقاليد كأن أهلك الغائبين - أهلك بالمفهوم الأشمل - تحدث لهم أشياء طيبة من دونك، ويمكن أن يبقوا بعيدين عنك للأبد.

- وحين لا يكون أحد من أهلك غائبًا؟

- دائمًا ما يكون أحدهم غائبًا.

مثل عدد غير قليل من العاملين بالصيدليات، كان الاثنان أيضًا في «تاكسهام» ليسا مجرد بائعين وعاملين فقط، بل إنهما أصبحا - على الأقل بمرور الوقت - أكثر من مجرد بائعين بسبب التعامل مع الزبائن ومع من يطلبون المشورة. وهكذا لم تعد المرأة وابنها تابعين، بل أصبح لهما مكانة، وبظهران بما يتناسب مع تلك المكانة. كانا يشعران برضا في العمل أكثر من موردي البضائع، ولهذا تركهم الصيدلي منذ هذا الصيف يفعل كل شيء بمفردهما بقدر الإمكان، وهو ما أدى بالتأكيد إلى وجود صعوبات أقل الآن، ومرضين أقل أو خائفين أو يائسين. وهكذا كان أسرته الغائبة في الصيف قد فعلت معروفًا، ليس فيه فقط؛ لكن في أناس آخرين أيضًا وشجعتهم وأعطتهم القوة، إنه علاج بطريقة خاصة.

وهكذا استطاع الصيدلي الآن أن ينسحب إلى الجزء الخلفي من الصيدلية لمدة نصف يوم، قال لي:

- لا أستطيع أن أقضي اليوم بأكمله مع الناس. ولماذا عليّ أن أفعل هذا؟ إن إنتاج الأدوية في الصيدليات تم الاستغناء عنه تقريبًا.

لكن، ما زال يعجبه بين الحين والآخر أن يتعامل مع بعض المواد الأولية، ويعيد تشكيلها لينتج مركبًا جديدًا باستخدام الطرق اليدوية التي تعلمها قبل عشرات السنين، أو ينشغل بخلطها معًا وتغييرها بفعل التفاعلات. إن الإنتاج الفيزيائي والكيميائي لأدوية الصداع، ونقاط القلب، ودهانات الروماتيزم مكلف ويستغرق وقتًا طويلًا ويبدو في الوقت الحالي بلا جدوى، فبالجزء الأمامي من الصيدلية توجد الأدوية نفسها تقريبًا بمذاق مختلف وروائح مختلفة، علاوة على أنها يتم فحصها من قبل المصنع المنتج.

على الرغم من هذا، لم يستطع الصيدلي أن يقلع عن العبث بالمواد الأولية. كان يعمل في خياله من أجل محنة، محنة لم تعد بعيدة. محنة تصيبه بدرجة أقل مما تصيب الآخرين، زبائنه وسكان المنطقة والدائرة المقربة منه (لا توجد في الواقع سوى تلك الدائرة، لا يأتي أحد من خارجها، باستثناء حالات الخدمة الليلية النادرة)، وحركات يديه في أثناء ذلك لا تشبه على الإطلاق ما نتخيله عن صيدلي، ليست حركات صغيرة في إطار ضيق، ليست حركات صيدلي، بل حركات واسعة النطاق، متقطعة، متباعدة، منحنية في الهواء.

حين حاول أحدهم اقتحام الصيدلية - وهي المحاولة الأولى منذ تأسيس الصيدلية - وجد المقتحم نفسه هناك في الجزء الخلفي للصيدلية في مواجهة صيدلي «تاكسهام»، فسقطت السكين من يده على الفور، وفر خارجًا من الصيدلية. يقول صيدلي «تاكسهام»:

- لقد لاحظ أنني لست خائفًا، لا يجب أن يملكك الخوف في تلك اللحظات.

- كيف تفعل هذا؟

- ممنوع أن يملك منك الخوف.

كانت للصيدلي منطقة خاصة، فقد كان خبيرًا في أنواع الفطر، لو أن هذا المصطلح يمكن أن ينطبق على الموضوعات المبهمة.

في كثير من الصيدليات، على الأقل في أوروبا، توضع في واجهات العرض في بداية الصيف قائمة بالفطر الصالح للاستهلاك الآدمي، والفطر السام. وأحيانًا أيضًا، توضع مجسمات ثلاثية الأبعاد تُرتب بعناية. وحين يأتي شخص عديم الخبرة من خارج القرية، من الغابات والمزارع ومعه ما جمعه من الفطر، ويطلب معلومات، فإن معظم الصيادلة عادة ما يهزون رؤوسهم في صمت،

ويلمسون الفطر بحذر. وغالبًا ما يعطون تكهّنات غير مناسبة؛ «سام أو على الأقل مشكوك فيه».

أمّا صيدلي «تاكسهام»، فكان على العكس من الآخرين يعرف من النظرة الأولى، أو اللمسة الأولى، أو على أقصى تقدير عن طريق الشم والتذوق نوع الفطر الذي يحضرونه (بعض أنواع الفطر كان يصعب التمييز بينها، لكنه كان يتعرف عليها من أنواع الديدان؛ الحلزون، الحشرات، والعناكب الموجودة فوق الفطر أو داخله). كان متحمسًا لكل نوع من أنواع الفطر؛ تُعرض عليه حتى وإن التصقت بعضه بيد الأطفال أو وضعها أحدهم في فمه بدافع الطيش، وهو ما يمكن أن يسبب أشياء سيئة، وحتى إذا كانت رائحة الفطر كريهة وتفوح في المكان؛ مثل رائحة جثة حيوان نافق منذ ثلاثة أسابيع.

يقول الصيدلي:

- أسأل نفسي أحيانًا، أليس ولعي بالفطر أيضًا هو ما فرّق بيني وبين زوجتي؟ خاصة في فصل الخريف، حين كنت أعود في المساء إلى المنزل، كانت جيوب المعطف والبدلة ممتلئة بالفطر، وكذلك الثلاجة وغرفة الخزين، وحتى القبو الذي يُعد أفضل مكان للاحتفاظ بالفطر ورائحته. وكانت زوجتي تضطر لأن تأكل معي الفطر كل يوم - توجد أنواع كثيرة من الفطر صالحة للاستهلاك الآدمي أكثر مما نعتقد - وتكفي حتى فصل الشتاء. بالتأكيد فاض المنزل عن آخره بالفطر بمرور الوقت، لكن كذلك في الحديقة، حيث كنت أخبئ الفطر من زوجتي. هل كان يجب عليّ أن ألقى الفطر، هدية الطبيعة، هذا الطعام الفاخر؟ كان الفطر يشع وتفوح رائحته بوضوح بين الشجيرات ومن ثقبوب الأشجار مثل جثة كلب. الفطر القرني النتن «Stinkhorns» ويكون في حجم بيضة الحمام وهو طعام شهى بطريقة لا توصف، يُقطع إلى شرائح ويُضاف إليه على سبيل المثال الملح وزيت الزيتون.

وهكذا، كان الشيء الثاني الذي يمارسه الصيدلي في معمله قبل مطبخه هي أبحاث الفطر، بوصفه الآن طبّاحًا واثقًا من نفسه أكثر من كونه المتدرب المتعثر بطيء الاستيعاب. نعم، إنه يجهز نفسه ليكون خبيرًا في الفطر، إذ يريد أن يصف ذات مرة قيمة بعض أنواع الفطر التي يحتقرها الناس بوجه عام، وإبراز تأثير بعض أنواع الفطر على البشر، لكنه لم يكن يهتم بالأنواع التي تبعث النشوى وتحفز الوعي، بل بفطر الأحلام، الفطر الذي يحفز الأحلام.

في بداية الفترة التي تدور فيها أحداث القصة، ساد جفاف شديد في «تاكسهام»، ولم ينم فطر في أي مكان بسبب الجفاف لا يوجد فطر وبالتالي لم يستطع أن يواصل تجاربه على الفطر محفز الأحلام، واستبعد من بين الملاحظات التي يدونها الملاحظات الخاصة بالفطر محفز الأحلام والتي أراد

مسحها وتخطيها، واستبعد من الملاحظات التي يدونها تلك الملاحظات الخاصة بالفطر محفز الأحلام والتي أراد حذفها وتخطيها

من عند المائدة الطويلة المطلة على النافذة الزجاجية بالجزء الخلفي للصيدلية رأى الحشائش الصفراء التي يسير فوقها طائر الشحرور - طائر الشحرور فقط الذي يستطيع أن يأتي دون أن يلاحظه أحد إلى الأماكن الخالية - برأسه السوداء المتألقة كأنها بلا عيون مثل فارس يبحث عن مبارزة. فارس أحكم ربط قناعه. والسياح الذي يدخل منه الطائر كان يمثل بداية نظام حواجز متداخلة تصل إلى السياح المرتفع بضواحي المدينة. كان الصيدلي يرى الحواجز بوضوح، عن طريق ورقة شجر واحدة فقط تتحرك بحرية طوال فترة ما قبل الظهيرة، وميض وبريق شديد لشجرة بأكملها وبمرور الوقت لغابة بأكملها.

بين الحين والآخر، كان الصيدلي موجودًا أيضًا في الجزء الأمامي للصيدلية، ويقدم المساعدة حتى وإن كانت عبارة عن تقديم كوب من الماء فقط.

في فترة الظهر، كان الصيدلي يذهب كعادته إلى محل صغير لبيع المأكولات الخفيفة والسريعة في الغابة الواقعة بين «تاكسهام» و«مطار سالزبورج». ما المقصود بكلمة «عادة»؟ إنها طقس أو لوائح ذاتية، يلتزم بها بصرامة على الرغم من أنه يُجبر عليها أحيانًا.

بالنسبة للغريب الذي يأتي عبر الغابة يبدو كل شيء مريب. وبالنسبة للسكان المحليين لم تكن الغابة وجهة يقصدونها، بل كانوا يمرون من الخارج في طريق متعرج يطل على قطع أراضي محاطة بسور - شيء لم يكن مألوفًا في غابات الدولة بأكملها - كان يقطع الطريق طرق قصيرة تنتهي على ما يبدو في الأدغال. وعلى الطريق آثار إطارات سيارات، وكان ممتلئًا بالنفايات الناتجة عن المركبات التي تعمل في الأرض، وكذلك من مئات الطائرات الصغيرة التي تحلق فوقه، حتى الأشجار كانت قممها مغطاة بالورق والبلاستيك.

لكن الصيدلي كان يعرف غابة ثانية داخل تلك الغابة. كان يحيط بالغابة الصغيرة خندق وحزام من التوت الشوكي. في الغابة ثغرة في مكان ما يدخل من خلالها فوق لوح خشبي دون أن ينحني. بعد الشفق، أصبح المكان هنا مضيئًا، كما يكون الحال عند اقتلاع الأشجار، على الرغم من نمو الكثير من الأشجار والنباتات ووجود ظل. كل شجرة وشجيرة توجد على مسافة واضحة بينها وبين الأخرى - وكذلك أيضًا الظلال على مسافات - ومن كل نوع من الأشجار يوجد نوع واحد فقط؛ شجرة توت، شجرة البتولا، شجرة صنوبر... وهكذا على شكل دائرة، وكل هذا بشكل غير منتظم ودون نظام مما يعوق الانطباع بأنك في مدرسة أشجار أو نباتات. ينمو هناك أيضًا، في هذه المنطقة، أشجار نادرة ويصعب الاحتفاظ بها مثل الكستناء الحلو، وشجر التنوب الصربي (شجرة نحيفة شاهقة الارتفاع ترجع إلى العصر الجليدي)، شجيرة عنب التوت وشجرة الجميز.

حين جلس أسفل شجرة مورقة ومعه حقيبة يده القديمة الممزقة - الحقيبة أيضاً كانت فريدة من نوعها - اكتشف فجأة أنه ليس بمفرده. كانت الشجرة هناك ذات ظل كبير وخيَّمت أسفلها مجموعة من عمال الغابات بجوار أدواتهم والمناشير والسلالم في راحة الغداء. كانوا قد أشعلوا أخشابًا متراكمة فوق بعضها، واشتعلت النار بوضوح ودون دخان.

أكل الصيدلي مثلهم الساندويتشات التي أحضرها معه في الحقيبة - كان معهم ساندويتشات مشابهة - وتفاحة للتحلية (من سوبر ماركت تاكسهام).

«صيدلي»؟ رائحة الدواء التي تلتصق به تتطاير في الطريق لفترة طويلة. يحدث هذا سواء أراد أو لم يرد؛ في مكان عمله وبالخارج أيضاً لفترة طويلة؛ حتى سيارته تظل ممتلئة بتلك الرائحة، وأحياناً يتجنب سيارته فقط لهذا السبب. كانت ملابسه بسيطة للغاية لدرجة أنه لا يمكن تمييزها عن ملابس عمال الغابات في التفصيل واللون. علاوة على أنه كان حافياً مثلهم، فقد خلع حذائه في طريقه إلى الغابة. بالنسبة له تعني فترة الظهر الوقت الذي يشعر فيه بضعف شديد بداخله، لكن ليس بسبب الجوع. تساعده الأرض تحت باطن قدميه العاريتين مباشرة على أن ينعم بمساح من القدم إلى الرأس، لأن الأرض في تلك الغابة ذات طبيعة خاصة، حيث كان الطريق ناعماً بفعل أوراق شجر الكستناء الحلو المتساقط للتو على الأرض، ثم ينتقل على سبيل المثال إلى موضع ليس به سوى أخاديد صلبة، وفي النهاية ينتهي هنا في حقل منظم من أوراق شجر الزان ذي الحواف الحادة.

أكلوا جميعاً طعام الغداء في صمت تام وظلوا هكذا لفترة. عندما ينظرون في الاتجاه نفسه، كان يتظاهر بأنه منشغل بفعل شيء ما. شرب من العين المختبئة تحت شجرة الحمير بفعل إزالة الأشجار. وحين رآه الآخرين في أثناء ذلك، عاد ليجلس في مكانه. كان العمال يقطعون وينشرون الأشجار مجدداً، وقرأ الصيدلي كعادته في الصيف ملحمة من ملاحم الفرسان والسحر في العصور الوسطى.

- هل كانت تلك الملاحم لا تحكى في الشتاء؟ أم كانت تحكيها نضارة الزهور والسباحة في البحيرة، والقلاع مغطاة بالجليد ومعزولة؟

- لكن، في طبيعة الصيف الموجودة هناك، أدرك عالم الصيف الحالي ويظهر أمام عيني أكثر وضوحاً، كشيء أصبح في تلك الأثناء حقيقة ولم يعد مجرد خدع سحرية وأسطورية.

- على سبيل المثال؟

- انظر فوقك وتحتك. أنت تشق طريقك لساعات عبر الأدغال، وفجأة يفتح أمامك باب أوتوماتيكي، ويأخذ منك شخص ما الحقيبة في قاعة مكيفة ويقودك

إلى المغامرة التالية.

- عالم خيالي؟

- لا، إنه عالم واقعي، هناك في المنطقة المحاطة بسياج بالغابة الموجودة داخل الغابة في فترة بعد الظهر في أثناء القراءة وخاصة في أثناء غلق العينين، جلست كتيبة من الجيش تحت الأرض وملابسهم رمادي في رمادي، لكنهم مستعدون للتعبير عن رأيهم، ولم يجلسوا على الجانب الآخر من الجبل الزجاجي، بل هنا في الصيف.

كان عليه أن يذهب إلى الاجتماع الشهري مع زملائه إلى وسط المدينة. كان زملاؤه في المهنة يعرفونه بلقب «صيدلي تاكسهام»، دون أن يعرفوا اسمه. بالنسبة له، لم يكن الاجتماع يتعارض مع الساعة المشتركة التي قضاهها مع عمال الغابات الذين تحركوا عبر ضوء وظلال الأشجار كأنهم يمتطون أحصنة، مما جعله يقفز ليمتطي حصانه ويسير في مواجعتهم. الغريب فقط ما يحدث له بسبب وجوده بمفرده مع هؤلاء المهمشين، المنعزلين أو المنبوذين، لأنه لاجئ أو حفيد للاجئين، ويرى نفسه منذ فترة طويلة غير مشارك وغير مندمج بدرجة أكبر (حتى وإن كان لا يشعر بالندم على هذا) فهو دائمًا موجود بسبب عمله في الضواحي فقط، والتي ليست بالقرى ولا بالمدن، أي بعيدًا عن المواطنة والسلطة؟

لا توجد تفسيرات ولا تبريرات حاسمة. ما زالت رائحة أوراق الشجر تفوح من يديه بقوة وهو يجلس على الطاولة، وحتى بعد لعب الورق.

مرت السحب فوق رؤوس عمال الغابات، ودوّى صوت طائرة بمحرك واحد. اجتاح صيدلي «تاكسهام» شعور بالجوع وهو جالس هناك، جوع حقيقي. أراد ثمار الفاكهة، لكن لم يجد منها سوى كرز بري جاف وشجيرة عنب، ثم غمرته رغبة شديدة غير محددة، موجهة إلى الفراغ، ميل؟ أم إجبار؟

كذلك، ذكره حيوان الخلد الأسود - النافق في طريق العودة - ووجهه المدبب مرة ثانية بخوذة الفرسان. هذا الوقت هو الفترة الانتقالية في العام، حيث لا يوجد شيء في الطبيعة في هذه المنطقة لتبحث عنه، لا فاكهة ولا فطر ولا أي شيء. عادة ما كان يتوقف عن البحث في هذا التوقيت، لكن هذه المرة قال لنفسه ربما يجعله هذا حر من أجل فعل شيء آخر. جيد أنه لا يوجد شيء للبحث عنه.

في وسط مدينة «سالزبورج»، تحرّك الصيدلي من مكان إلى آخر كأنه يرتدي عباءة التخفي. فقد رأته هناك مرتين فقط خلال كل تلك السنوات. على الرغم من أنه قال لي إنه لا يخالط أحد في المدينة، إلا أنني قابلته هناك في طريق طويل غريب.

ذات مرة، قابلت في طريق فرعي مهجور بجبال «مونشسبرج» رئيس وزراء إسبانيا آنذاك في زي غير رسمي، برفقة رجل عريض الكتفين في ملابس داكنة ونظارة شمس - حارسه الخاص بالتأكيد - عرفت أنه صيدلي «تاكسهام» فقط حين مر بالقرب مني.

وفي مرة ثانية، رأيت من فوق الجسر ممثلة أمريكية معروفة آنذاك (توفت فيما بعد غرقاً في المحيط الهادي) في شرفة فندق «القصر النمساوي» وكيف كانت تلوح من هناك بحركة صغيرة في خجل، لكنها لم تكن تلوح لي؟ لا، لأنني حين التفت حولي رأيت رجلاً غريباً أنيقاً - وهذا أمر نادر في هذه المدينة - كان يبدو متربباً ومتهاكاً مثل نسخة مكررة من «ريتشار وبيمارك»، ردّ لها التحية بالمثل - ربما لم يكن صيدلي «تاكسهام»؟ - إنه هو، واختفى مجدداً مثلما اختفت أيضاً الممثلة الجميلة من شرفة الفندق.

كان المؤتمر الشهري مع زملاء المهنة في الصيف ولم يستغرق طويلاً. بعض الصيادلة كانوا في إجازة، ومعظم الأدوية الجديدة أعلن عن نزولها السوق في فصل الخريف. وبالنسبة للفترة الحالية تكفي في المنطقة المحلية الأدوية التقليدية القديمة التي يحتاجون منها إلى مخزون أكبر بسبب السائحين، لكن صيدلي «تاكسهام» لم يكن معنياً بهذا الأمر.

ثم جلس ثلاثة صيادلة في مطعم مطل على نهر «سالزاك»، حيث لطّف هواء النهر حرارة الجو. صيدلانية من منطقة «إتسلينج»، صيدلي من منطقة «ليفرينج»، وصيدلي «تاكسهام». صيدلانية منطقة «إتسلينج» كانت امرأة شابة قال لها صيدلي «تاكسهام» ذات مرة في السابق، ومن دون قصد وهو غارق في التفكير في أثناء مناقشة أخرى عن الأدوية: «أنت حقاً جميلة للغاية!».

قال لي صيدلي «تاكسهام» بعد ذلك إن تلك المرأة لها قصة لا بد من حكايتها، قصة تحمل القدر نفسه من المغامرة والغموض مثل قصته، لكنها بالتأكيد أكثر إثارة جنسية من قصته ربما يمكن أن تكون شخصية رئيسة لكتاب؟ لماذا أنا بالتحديد؟ لماذا ليست هي؟ أجبته قائلاً:

- هل بإمكانك أن تقدمها كبطلة لكتاب بعنوان «صيدلانية إتسلينج». وقد يكون منتظراً صدور كتاب باسمها.

في ذلك اليوم، بعد الظهر حين رأيت بداية قصته تحدث أمامي، كان غارقاً في الأفكار أمام الاثنين الآخرين، وقال فجأة للصيدلانية الجميلة:

- لماذا لون جلدك أسمر؟ عند المصريين يكتسب جلد الرجال فقط باللون الأسمر، أما السيدات فجلدهم أبيض مثل الرخام أو الجبن. لماذا يتجول كل الصيادلة تقريباً اليوم بهذه السمرة الدائمة، وخاصة السيدات؟

- لكنك أيضاً أسمر اللون، في الواقع أسمر داكن مثل الفلاحين.

- بالنسبة لي، فإن هذه طبيعة بشرتي، وهذا يرجع إلى الحركة بين الشمس والظل، لكن ليس مثلكم نتيجة الاستلقاء والكريمات في صالون التسمير، وضبط الشعاع لتناسب درجة السمار مع البالطو الأبيض.

- لماذا أنت بهذه القسوة اليوم؟ لكنك أردت ذات مرة أن تبني هرمًا لتكريمي.

في تلك الأثناء، طَوَّر الصيدلي العجوز ضعيف السمع لدرجة تصل إلى الطرش - القادم من حي «ليفرينج» - نظريته عن الأبراج بصوت مرتفع يُدَوِّي عبر النهر. طبقًا لتلك النظرية، فإن الأبراج لا تنطبق على الأشخاص فقط، لكنها تنطبق أيضًا على مناطق وعلى دول بأكملها. فمصير الدول يتعلق بالنجوم المهيمنة عليها. وتاريخ البشرية والشعوب فيما بينهم، والشعوب في داخلها تتحكم فيه الأسد والعقرب والجوزاء والثور. وهكذا لا يمكن التفكير في الولايات المتحدة الأوروبية، لأن كل دولة أوروبية تقع تحت نطاق برج مختلف وكل الأبراج تكاد تتساوى في القوة، لا يمكن لبرج منهم أن يطلب أولوية عن الآخرين. وكذلك في ألمانيا تهيمن على الولايات المختلفة نجوم متباينة لا يمكن توحيدها معًا لدرجة أن الخوف المتزايد من تلك الدولة العظمى يبدو غير مبرر تمامًا. أمَّا أمريكا الشمالية فيهيمن عليها نجم واحد فقط، ولذلك تم توحيدها لتكون الولايات المتحدة الأمريكية. وتلك الولايات كان يمكن بالتأكيد توحيدها تحت برج الحمل، العذراء أو الجدي.

- كلام فارغ.

قاطعه فجأة صيدلي «تاكسهام» الذي كان غارقًا في التفكير لفترة، وبوزع نظراته على المرأة الشابة ومياه النهر. إنه معتقد صيدلاني نمطي! لا يتم التحكم في مصير البلاد من أعلى، ليس من الفضاء، بل من الأسفل، من تحت الأرض. ومن هناك بالأسفل لا يتم التحكم فينا أو في البلاد والدول بأي حال وتقييدنا، بل يتم تحريكنا وتحفيزنا.

- أين بالأسفل؟

سألت المرأة الشابة، في حين استمر الرجل العجوز بجانبها في صياغة نظريته عن الدول والنجوم بصوت مرتفع دون أن ينصت لما يقال.

- في الـ«ماجما»؟

إلا أن صيدلي «تاكسهام» صمت مجددًا في تلك الأثناء، وأغلق عينيه وبدأ أنه توقف عن التنفس. ولم تتغير تعبيرات وجهه حين أمسكته المرأة من ذقنه وقالت:

- معتقد صيدلاني نمطي!

واصل صيدلي حي «ليفرينج» حديثه قائلاً:

- إن مصير يوغوسلافيا لا بد وأن ينتهي بالشر. ففوق كل بلد علامة، ويوغوسلافيا كانت من البداية غير متوافقة، وفي حرب مع الدولة المجاورة لها.

عاد الصيدلي بالحافلة إلى «تاكسهام» وعمل حتى بعد غروب الشمس - غروب الشمس في شهر يوليو يكون في وقت متأخر - في الحجرة الخلفية وكانت الأبواب مغلقة. أحياناً، بدا أن الوقت متجسد في لوحة، كما هو الحال الآن؛ كلوحة لمنحنى شعر فيه بارتياح وهو يعمل في هدوء. وفي الجزء الأمامي من الصيدلية يتم التنظيف، ويسود الصمت بين لحظة وأخرى، وفي أثناء الصمت تهيم الألوان وتزدهر على الرغم من غروب الشمس.

قام بتنحية شيء جانِبًا، عائق، حاجب للرؤية، عدسة مصغرة؛ لتظهر خريطة أخرى للعالم بمقياس مختلف، لا يمكن الإمساك بها، ولا التأقلم معها، أو وضعها في الجيب، لكن ربما تستخدم لمعرفة الأبعاد، حتى وإن شحب لونها وانكششت في صمت. فرد الصيدلي أصابع يديه وترك الهواء يمر خلالها. نهض مبتعدًا عن الطاولة عدة مرات. تسللت عبر النافذة المفتوحة وقضبان الكشك رائحة الشوارع المتربة التي ارتوت لتوها بالماء. وفي تلك الأثناء، شم رائحة المطر الذي طال انتظاره، وفي الوقت ذاته شم رائحة السيرك الذي انتقل مع بداية الصيف كطفرة مفاجئة من هناك خلف السياج النباتي الأخير على بعد ميل من «تاكسهام».

كان الصيدلي معروفًا في الناحية بقوة حاسة الشم. عل سبيل المثال كان «لوزر» معروفًا بقوة حاسة السمع التي تدفعه - طبقًا لكلامه - إلى التفكير في المستقبل. وأنا، معروف بقوة حاسة البصر والرؤية.

كان الصيدلي معروفًا بقوة حاسة الشم لديه، بل بأنفه المجردة يستطيع أن يميز بوضوح بين مئات الأشياء في الوقت نفسه دون أن يختلط عليه الأمر، ومن دون أي وسيلة مساعدة. (بالتأكيد لا يمكن دائمًا الفصل بين خصائص شيء وخصائص شيء آخر). تمامًا مثلما يحتفظ بعض الناس بمشهد ما لعدة شهور، ويتمكنون من رؤيته كطيف في الشبكية؛ لرؤيته لا يحتاجون سوى لإغلاق أعينهم. كان الصيدلي يحتفظ في أنفه بالروائح التي شمها بشكل عابر لمدة طويلة ويسترجعها من جديد بقوة. ومثلما تصبح الأشياء واضحة وحية في أطياف هؤلاء الناس، تصبح الروائح كذلك بالنسبة للصيدلي. وبناء على ذلك كان يشم روائح الحيوانات التي يأتي بها السيرك المتنقل سواء كان فهد أو مجرد قرد صغير.

اقترب الصيدلي من طاولة المعمل وهو غارق في الأفكار. شمّر عن ساعديه وتحرك على أطراف أصابعه. أحيانًا تقوم زاوية الرؤية المتباينة القائمة على

المعرفة فقط بزحزة الفراغات وإعطاء الأشياء تطورًا مختلفًا، ثم تعيد ترتيب الأمور.

- ألا يمكن أن يكون هذا أيضًا مخيفًا؟

أجاب الصيدلي:

- لا يخيفني شيء أبدًا، على الأقل حتى ذلك الوقت.

كان ذلك بعد فترة طويلة من الوقت الذي حدث فيه قصته.

بالأعلى، في المشهد من النافذة خلف الطاولة كان من الممكن الآن ملاحظة أن جميع مباني المنطقة تبدو في ضوء النهار كدائرة مغلقة؛ أمّا زاوية الرؤية من مبنى الصيدلية الواقع في منتصف الدائرة مختلفة تمامًا. فقد أسست المباني بشكل مختلف تمامًا عن الصيدلية التي كانت أول مبنى يؤسس في المكان، حيث بُنيت المباني على محور أساسي مُعارض لذلك الذي أُقيم عليه مبنى الصيدلية، وهو ما يمثل تجاهلاً للمبنى المركزي الصغير، أو كأنه غير موجود.

وعند الانصراف والنظر إلى الخلف، عبر كتفيك، تبدو المساحة المكعبة للصيدلية هناك في البراري منفصلة عن المكان المحيط بها، وغير مرتبطة كذلك بالأرض المحيطة بها، كأنها حجر لقيط. لم يعد هناك طفل مستيقظ. لم يعد هناك طائر في السماء. وفي المقابل، كانت هناك سحابة كبيرة لونها أبيض في رمادي وطرفها العلوي منحنى بشدة، تتجه ببطء إلى الشرق، كأنها في رحلة دينية. من الممكن أن تتجه أيضًا إلى الغرب، ومن الممكن أن يحدث هذا في الصباح أيضًا.

دائمًا ما يذهب الصيدلي بشكل منتظم إلى مطعم لتناول العشاء، ودائمًا في اتجاه المطار، حيث يوجد المطعم خارج كل الصالات التي بُنيت حديثًا على الجانب الآخر من مواقف السيارات وحقل زراعي. بُني المطعم في مكان مخزن تحت الأرض. كانت قاعة الطعام الصغيرة المنخفضة يقع نصفها تحت الأرض. جميل أن تنزل هناك بضع درجات من الشارع الخالي تقريبًا، والذي تشعر فيه بأنك تسير في طريق بين الحقول، خصوصًا مع اختفاء ضوء النهار الآن، والنظر إلى الخارج، إلى لا شيء.

على عكس ما كان يحدث في السابق، جلس الصيدلي بمفرده لفترة طويلة أثناء تناوله العشاء من دون عشيقته. اعتادت زوجته أن تنضم إليه بضع مرات فقط في البداية، حتى جمع الفطر المنتفخ ذا اللون الأزرق، وأضاف إليه زيتونًا أخضر وتركه للطباخ ليجهزه من أجلها؛ هي المرغمة على تناول الفطر الذي يشبه مذاقه لحم البشر.

في الخارج، وعندما ترفع رأسك إلى أعلى، تلاحظ انتشار الغسق فوق الحقول وهبوط آخر طائرة، حيث لا توجد رحلات طيران ليلية. الطاولة المقابلة

لطاولة الصيدلي كانت مشغولة، لكنها ظلت هادئة على الرغم من أن باب المطعم كان مفتوحًا. والحديث الدائر هناك بين زوجين ورجل اتضح فيما بعد أنه كاهن كان يمكن فهمه جيدًا، حتى دون أن يرفعوا أصواتهم. الزوجان.. هرب ابنهما الوحيد واختفى منذ سنوات. أثناء الأمسية، اتضح أنهما طرداه ومنعاه من دخول المنزل، وفي النهاية وضعها له الحقيبة أمام الباب، لا.. بل تركا له كيسًا بلاستيكيًا، وأغلقا الستائر وذهبا في رحلة حتى لا يضطرا لرؤيته. والآن وصل الاثنان أيضًا إلى النهاية. قالت المرأة: «أتمنى الموت». وقال الرجل: «وأنا أيضًا أتمنى الموت».

أوضح الكاهن أن الموت ربما يكون نوعًا من القفز الخطير الذي تعود بعده للوقوف على قدميك من جديد بشكل مختلف.. تلعلم في الحديث ثم توقف عنه، ثم صمت الثلاثة وبكى الزوجان.

جلس صيدلي «تاكسهام» بجوارهم دون أن يلاحظوا وجوده، واضطر لرفع ذراعه أكثر من مرة ليطلب الحساب. وعندما استأذن في الانصراف تحدث بلغة اعتقد صاحب المطعم أنها إسبانية. إسبانية؟ هو نفسه لم يفهم ما قاله للتو. إنها ليست لغة على الإطلاق.

عندما قاد دراجة زوجته المرتفعة قليلًا على طريق النهر في اتجاه المنزل، شم رائحة عرق قوية في المروج المظلمة، واتضح بعد المنحنى أنها رائحة تنبعث من فرقة جنود في مسيرة ليلية.

جلست إحدى الأسر المجاورة المقيمة على الجسر في الشرفة، وتحدث معهم الصيدلي وهو يفتح بوابة الحديقة (لكن بوابة الحديقة لم تكن مغلقة بالقفل كالعادة حين تغادر زوجته المنزل). كان من الصعب رؤية رؤوس الآخرين من فوق السياج النباتي. في واحد من نوافذ السطح يومض ضوء ما؟ لا، إنه انعكاس لضوء مصباح الشارع. في طريقه إلى باب المنزل علق شيء ما بوجهه مثل خيوط العنكبوت. ظل عالقًا على وجهه؛ كأنه غاب لمدة أطول، وليس مجرد يوم واحد فقط.

شاهد التلفزيون للحظة فقط، إذ رأى رجلًا على الشاشة يفتح فمه عن آخره. أغلق الصيدلي التلفزيون قبل أن ينطق الرجل كلمته الأولى.

وكالعادة، عندما يكون المنزل بأكمله خاليًا، وليس فقط الجزء الذي يقيم فيه، فإنه لا يعرف إلى أين يذهب، ويصعب عليه أن يجد مكانه. منذ فترة طويلة لم يذهب إلى الجزء الخاص بزوجته؛ منذ رحلتها الأخيرة. تحرك الآن هناك في جميع الاتجاهات، في الضوء الخافت - نصف المصابيح الكهربائية محترقة - ولاحظ أنه يبحث بشكل لا إرادي عن رسالة أو إشارة موجهة له تحديداً، لكنه وجد آثارًا لماضيها المشترك، ووجد كذلك صورة صغيرة لابنهما مخبأة قامت

بلصقها ببانوراما لمنظر طبيعي، بالكاد يمكن رؤيتها هناك في قمة شجرة، ورأسه منحنية إلى أسفل، لبدو مثل لعبة البازل.

علاوة على ذلك فقد رتبت كل أشياءها الكبيرة والصغيرة بدقة، وليس فقط في الحمام، لكن أيضًا في الجزء الخاص بها بالمطبخ؛ يبدو النظام الذي تركته صارمًا من مظهره، ويمكن أن يتعرض للفوضى بمجرد لمس جزء منه. فإما تجد شيئًا معلقًا بخيط واحد، أو موضوعًا على حافة مرتفعة، أو تلك المجموعة من البلورات الكريستال المثبتة على المنحدر المائل دون أن تتحرك لتبدو من النظرة الأولى كالمعجزة. كان يجب أن تنقلب مثل برميل الملح المفتوح، الذي قد ينقلب مع أضعف دفعة بسبب ساقه مقطوعة. وإلا كان يجب أن تنكسر مثل حزمة من الأقلام الرصاص، التي تنكسر عند وضعها على رأسها دون ضغط بسبب أنها بُريت لتصبح أسنانها رقيقة للغاية. وماذا إذا كانت هذه هي الإشارة؟

عاد الصيدلي إلى الجزء الخاص به من المنزل وقلب - في حجرة النوم - الوسادة على ظهرها ولم يجد شيئًا. هناك تناقض غريب بين الوسادتين؛ واحدة مجمدة والثانية بجانبها ملساء لم تُمس، والثنايا التي تركتها المكواة فيها كما هي منذ سنوات وكأنها ظلت تحت غطاء زجاجي، سرير في قصر مهجور مريح ينتظر عودة أحدهم.

اتصلت ابنته من الجزيرة التي تقضي فيها إجازتها وقالت إنها تنوي البقاء هناك لمدة أطول، ثم اتصلت زوجته أيضًا وقالت إنها وصلت بخير، لكنها لم تخبره بمكانها.

لعب الصيدلي مباراة شطرنج مع نفسه وترك خصمه يكسب. كان يمكنه سماع صوت النهر المتدفق بسرعة عبر النافذة المفتوحة ولا يمكن رؤيته من وراء السد، بالإضافة إلى نقيق صرصور الحقل؛ صوت صفيح رقيق متواصل من عند الجسر، من بين الشجيرات ومن حفر الأرض، أكثر الأصوات انتشارًا في فصل الصيف. والقمر مختفٍ في السماء.

قال أحد اللاعبين لِللَّاعِبِ الْآخَرِ:

- ماذا تريد؟ هل تريد شيء ما؟

- نعم، أريد الاستمرار. لديّ فضول، كيف ستسير الأمور؟

- بأي طريقة؟ ومع من؟

- معي، معنا. مع قصتي، قصتنا. والآن لا بد أن نفعل شيئًا بأنفسنا لهذا الغرض. وأنا لا أقصد بهذا على الإطلاق الغوص في البحيرة العميقة أو تسلق جبال الهيمالايا.

- ما هو تصورك عن هذا الاستمرار على سبيل المثال؟

- ربما يقفز أحدهم عبر النافذة المفتوحة ويطلب المساعدة، أو يضع سكينًا على رقبتني، أو أجد جلد ثعبان بجواري على السرير في الصباح الباكر. لا، بل يجب أن يوجد أكثر من مجرد جلد، شيء مرعب أكثر من مجرد ثعبان.

- ولماذا صوتك مكتوم بهذه الطريقة؟

- ابنتي سألتني السؤال نفسه قبل قليل وزوجتي كذلك. صوتي يأتي كأنه من أعماق بئر، أو من حفرة.

وفي نهاية هذا اليوم، تدرّب الصيدلي على الرمي، حيث رمى قطع الشطرنج في العلبة، والعلبة كانت تتحرك من مكانها قليلًا عند كل رمية.

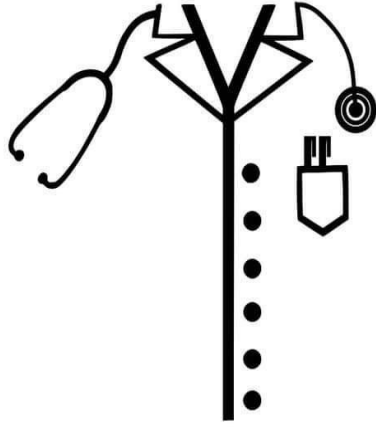
لا نعرف إذا كان ما يقضمه الصيدلي هو الفطر المجفف أم لا. على كل حال، في الليل، راوده حلمان يدوران على الجانب الآخر من شخصيته. في الحلم الأول توجد جوار القبو الصغير بالمنزل سلسلة من الغرف تحت الأرض تربط بينها صالة، القاعات مؤتثة في غاية الفخامة، ومضاءة بشكل احتفالي، وجميعها خالية كما هو متوقع، ومستعدة لحدث رائع وربما مروع كذلك، لكن هذا الحدث ليس جديدًا، بل هو منذ قديم الأزل.

في الحلم الثاني، لم يعد هناك وجود للسياح النباتي الفاصل بين المنازل المجاورة، حيث أزيل بالقوة أو سقط ببساطة، والناس ترى بعضها في حدائق المنازل وفي الشرفات وليس هذا فقط، بل كذلك في كل ركن من المنازل التي أصبحت فجأة مكشوفة تمامًا. الجار ينظر لجاره في اللحظات الأولى بخجل وإهانة متبادلة، لكن بالتدريج تحولت النظرة إلى ارتياح يقترب من السعادة.

(لوحظ أيضًا أن كل تلك المنازل غير المحاطة بأسوار بدت مثل مبانٍ ذات أعمدة فوق مستنقعات، كل منزل ذي قارب مربوط أسفله).

بعد ذلك، فكرتُ فجأة، هل ما زلت أحلم؟ لون أسود، لا شيء سوى ذلك اللون الأسود. لا أحداث، لا فيلم، بل نهاية الفيلم. نهايتي ونهايتك ونهايته ونهايتهم ونهايتكم. اللون الأسود طغى على المكان بشدة لدرجة أنه أيقظ الصيدلي من النوم، وبعدها لم يختفِ اللون الأسود، بل ظل موجودًا.

هل نام الليلة كلها على ظهره بهذه الطريقة واضعًا ساقًا فوق الأخرى؟ في تلك الأثناء، ظهر للحظة فجأة عبر النافذة المفتوحة على مصراعها في وسط السحب الكثيفة؛ القمر المتضائل المقلوب كأنه ينظر بوجهه إلى أسفل.





هبّت الرياح وانتشرت رائحة أمطار متساقطة. والآن، في ضوء الصباح الأول كانت سماء هذا اليوم مغيمة كما يحب ويتمنى، ليتمنى تبقى هكذا حتى المساء. (شمس الصيف الخالدة وزرقة السماء تأثرا بالجليد الدائم واختفيا).

في مثل هذا اليوم المظلم تقع أصغر الأحداث العادية، مثل بداية الثورات. وفي الوقت ذاته، يسود الهدوء في كل مكان، لا مزيد من الخيالات عبر الشمس. يحدث نوع من التحول بمساعدة مثل هذا الوضوح المظلم، وكذلك الغفلة. ليت سواد الليل يستمر لمدة أطول في الشمس الساطعة.

ذهب إلى السباحة في النهر. من دون الشمس كان لماء النهر لمعة مختلفة تمامًا وبدت كذلك أقل برودة. على الجانب الآخر من الحدود ظهر بين الأشجار على ضفة النهر منزل لم يكن موجودًا بالأمس؟ هل كان منزلًا قديمًا؟

وفي حديقته برز جدار صخري يشبه شراع مركب، هل ظهر بين ليلة وضحاها؟ مد الصيدلي ذراعيه في حركة لا إرادية عبر الفراغ الداكن للمياه. قرأ في ملحمة من ملاحم العصور الوسطى أنه حين تمتدح أروع مروج العالم، يمكن أن تتيقن من أن بطلها سيصطدم بصورة مرعبة مع فارس ينزف على نقالة وساقيه ممزقتين ورأسه محطم، أو بامرأة شابة معلقة من شعرها في شجرة.

هل تمطر؟ لا، حيوانات صغيرة تسقط بعيدًا من شجرة حور بالحديقة، ويصدر عنها صوت حفيف مستمر في الحشائش وكذلك على صفحات الكتاب. ولم يختفوا؛ كلما كانت الرياح أقوى، تشبثت الحيوانات الصغيرة بين الحروف دون حركة، وتتحرك من جديد هناك فقط حين تهدأ الرياح. وخفاش ينتفض ليصدر صوتًا من الشجيرات، أمر نادر الحدوث في الصباح؟ لكن ليس في مثل

هذا الصباح. يمكنك أيضًا رؤية الخفاش ومتابعته كأنه يطير أبطأ من المعتاد. أول الطيور في السماء لا تطير بالارتفاع نفسه كما تفعل في الزرقة المعتادة، أو ربما أعلى. وعلى كل حال، لا تطير بارتفاع الطائرات نفسها ولا القمر الصناعي.

الشيء الوحيد الذي كان صوته مرتفعًا؛ الغربان، هي على ما يبدو السكان الأصليين (ليس فقط لهذه المنطقة هنا)، وتحولت منذ فترة طويلة من طيور شتوية إلى طيور منتشرة طوال العام. وهي غالبًا ما تصرخ وهي مختفية مثل الديوك العجوز، التي تصدر صوتًا أكثر ارتفاعًا في الهواء، ومن حين لآخر تصدر صوتًا قويًا مكتومًا؛ مثل صوت طرق على الـ«إكسيليفون».

والآن ظهر غراب من الألف غراب على قمة شجرة عريضة من شجر الأرز بحديقة الجيران التي رآها هذا الصباح لأول مرة. تحرك الغراب على نهاية فرع من فروع الشجرة، وفي فمه ثمرة مستديرة. كانت الحديقة - ليست هذه الحديقة فقط - ممتلئة بمثل تلك الثمار المتساقطة وكذلك قطع المانجو، والليتشي، والكيوي. كان ريش الغراب أشعث وملتصقًا ببعضه بشدة، وجناحاه منحنيين، ومجمعدين، ومفرودين كأن لديه أكثر من جناحين، أو كأن العديد من الغربان تجلس معًا هناك على كومة وكل منها تلتهم الذباب من ريش الآخر؟

«أيها الغراب، تعالَ وتحدث!»، جاء الغراب طائرًا من فوق قمة الشجرة وهبط على طاولة الحديقة بجوار الكتاب المفتوح وقهوة «جامايكا بلو ماونت». وأدى في البداية برأسه وجسده سلسلة من الإشارات الإرشادية الصامتة، ثم قال: «...».

عندما حلق الغراب، زحفت مكانه على الطاولة دودة سمينية. كانت رائحة فم الغراب نتنة وكانت توجد بقع فاتحة اللون في رأسه. كان من بين ما قاله:
- أشعل الفتيل.

في الواقع نظر هناك بجانب الجزء الصدئ من لعبة السهام حيث رأى شيئًا مثل طرف فتيل أبيض يخرج من تربة الحديقة فأشعله كما أمره الغراب.

- اقطع الخبز بيدك، وليس بالسكين.
وبالفعل حين فعل كما أمره الغراب، بدا كأنه يقطع خبز الإفطار لأشخاص آخرين.

ثم غسل الصيدلي سيارته الكبيرة الجديدة الواقفة أمام المنزل، والتي كانت عريضة مثل ضفة النهر التي يعيش عليها. نظف المقاعد الخلفية وشعر أنه مستعد، وجاهز، ومهيأ حتى مع نقطة الضعف تلك كما قال الغراب الذي كان على حق بالتأكيد.

فتح نوافذ السيارة ووضع يديه على المقود وقرأ صفحة في الملحمة قبل التحرك بالسيارة. لا رياح حتى الآن في هذا اليوم المعتم. في المقابل، تهب الرياح في الكتاب. قال الغراب:

- من اليوم وحتى نهاية القصة لا تقرأ مزيدًا من الصحف.

وفي الواقع كان الوقت الذي دارت فيه القصة ليس وقت صحف. ألم يصرخ أحد هنا في وقت تشغيل محرك السيارة نفسه الآن باسمه في المنزل؟ من خلف النهر؟ في بؤس؟ من أجل إنقاذه؟ لا، فقط نعيق الغربان من جديد. أضاف الغراب:

- من اليوم وحتى نهاية القصة ليس لك اسم.

مرّ جار من أمام السيارة دون أن يتعرف عليه.

لم تكن النظرة الأخيرة في لحظة تشغيل محرك السيارة على المنزل، بل على صندوق البريد. أخيرًا لا وجود لبقعة الشمس التي كانت في أسابيع الصيف السابقة توهمه كل مرة بوجود خطاب، هذه أيضًا تعد ميزة لهذا اليوم المعتم. كان صندوق البريد خاليًا.

ثم شعر في الطريق بطاقة لم يكن مصدرها السيارة، طاقة غريبة، ربما غير مفيدة ومضحكة، قد تكون أيضًا عَرَضًا لمرض خطير؟ كان يفتقد الغراب أو من؟ «أورلاجا»، كانت كلمة في ملحمة العصور الوسطى تعني الحرب. «لقد ركبوا خيولهم متجهين إلى الحرب».

في مساء هذا اليوم، بعد العمل والبحث كان الطريق إلى المطعم تحت الأرض تقريبًا مظلمًا وصامتًا في المستوطنة المحاطة بسياج أو في الجزيرة المفقودة.

في أثناء النهار، تبادل الصيدلي لمرة واحدة فقط، وعبر القضبان، نظرة طويلة مع شخص من معمله الموجود بالخلف؛ مع طفل كان يركب أرجوحة ويظهر عبر أحد السياجات النباتية، كان يصل لارتفاع يثير الدهشة على الرغم من صغر حجمه، أم أنه كان قزمًا؟ على كل حال، كان الوقت مناسبًا لتبادل النظرات في وقت الظهيرة تقريبًا، لأن طاقته ضعفت.

ظل اليوم معتمًا.. وصافيًا. والآن، في منتصف الطريق بين «تاكسهام» والمطار، عند الغابة المنحنية - أطلق عليها هذا الاسم بسبب الطريق المنحني الطويل الذي يدور حولها - بدأ المطر أخيرًا يتساقط لأول مرة في هذا الصيف.

انعطف الصيدلي على الفور في واحد من طرق الغابة ونزل من السيارة. جلس على جذع شجرة متخذًا من شجيرة سققًا له. ألقى حصوة على جذع شجرة بعيدة وأصابه.

لم يعد يشم رائحة الصيدلية لفترة طويلة - أو بطريقة أخرى - يشم الآن رائحة قطرات المطر الأولى بعد جفاف استمر لأسابيع. الفتحات المتفرقة في الأرض ممثلة بالتراب (نعم، حتى الغابات كانت مغطاة بالتراب، وحين تخرج منها تجد على حذائك مسحوقًا أبيض ورماديًا). وكتل التربة تدحرجت بفعل تأثير قطرات المطر ولحاء الأشجار انجرفت بعيدًا. وهكذا بدأ على ما يبدو عصر جديد أو تحرك الوقت بعد فترة طويلة من التوقف والجمود.

جلس الصيدلي على ركبتيه ليقترب مما يحدث، وعلاوة على هذا فإنك تقترب من نفسك عندما تجلس في هذه الوضعية. ومجال الرؤية في تلك الأثناء ظل ممتدًا بقدر الإمكان؛ السيارة المتوقفة انحصرت الاضاءة الفعلية داخلها في مقابل الظلام المتزايد المحيط. كانت مقاعد السيارة الخالية واضحة بشدة، وبدأ كأن هناك صفوفًا كاملة من تلك المقاعد. وفي الخلف، كان مجال الطيران وتظهر فيه آخر طائفة ترتفع في السماء. جلس بجوار إحدى النوافذ مسافر أراد أن يمسح البخار من على زجاج نافذة الطائرة. وعلى يده اليمنى، يوجد على الطريق السريع موكب لا نهائي من الشاحنات بيضاء اللون، قوات الأمم المتحدة في مهمة مواجهة حرب جديدة، أو في طريق العودة من مهمة (بضع شاحنات تُجر، فنصفها محترق) وعلى اليسار يوجد مكان لتدريب الكلاب يقع على أطراف الغابة، حيث يبدو أن أحد الكلاب علق للتو في أنبوبة تزلج ويعوي في بؤس، وكلب آخر يعض بأسنانه بالات من القماش ويصدر عنه صوت حشرجة مرتفع، ويقفز عاليًا بالقرب من رجل مختبأ خلف جدار. كان المجرم الهارب يلف بالات القماش حول ساعده، لكن الكلب لم يفلتها وعض عليها وتعلق بها، ودارا حول بعضهما في دائرة حتى تارجح الكلب في الهواء.

المطر يزداد، مجال الطيران خال، مجال الرؤية متعكر وغائم، لكن في المقابل لم تكن الأفكار واضحة وراسخة. كانت الأفكار ضبابية لتصل إلى الظلام التام ومنه إلى اللا شيء. «السرطان وفقدان الأفكار»، تلك الحالة شائعة لدى الأطفال.

والآن، ساد الظلام الدامس بسرعة غير مسبوق، وبضربة واحدة اكتسى كل شيء أمام عينيه باللون الأسود.

أو ربما لم تكن ضربة واحدة قوية من مسافة قريبة على جبهته تحديدًا، حيث استأصل الورم الصغير الداكن قبل أسبوع، أو عدة ضربات مصدرها الظلام الدامس.

وماذا يحدث إذا دافع عن نفسه في هذا الصراع الثنائي أو العشاري؟ فقط في البداية، ظل دون مقاومة، ربما أدرك من هذا الوضع أنه من الأفضل أن يبقى بمفرده ويتحمل لأطول فترة ممكنة.

بحلول الظلام فجأة في كل شيء من حوله وبالضربة التي تلقاها على رأسه اتضح له شيء في تلك الأثناء؛ لم يعد بإمكانه أن يقوم بأي خطوة دون إدراك هذه الحالة الجديدة التي فرضت عليه كنوعٍ من التغيير الشامل. بالطبع كانت تلك الحالة بعد الضربة لم تكن مفهومة.

هل كان هذا اعتداء؟ قال لي بعد ذلك بفترة طويلة:

- إذا كان هذا اعتداء، فقد ارتكبه أسلافي؛ شممت رائحتهم التي علفت بي لفترة طويلة بعد الضربة.

- أخبرني بالمزيد عن هذا.

- لا، أنت بصفتك الكاتب لا ينبغي أن تتحكم في قصتي. حتى أنا كذلك لست المتحكم في قصتي. كل ما يمكن أن أقوله حين لملمت أفكارى مجددًا، كنت مسيلقيًا بين الشجيرات كأنني محبوس هناك، مقوس بين الجذور، ولهذا لم أكن مبتلا على الرغم من تساقط المطر بغزارة كما يحدث في منطقة «سالزبورج» فقط. شعرت في داخلي بسعادة غريبة أو امتنان، أو ربما حيوية. الآن صار الوقت مناسبًا. يمكن أن يبدأ الصراع. الضربة التي تلقيتها في الظلام أزالَت رائحة الصيدلي والمعمل مني وتمنيت أن أبقى في الغابة. أردت أن أمسك شيئًا، ألتقط شيئًا ما بعنف.

بهذه السرعة يمكن أن أتحوّل إلى إنسان الغابة، إلى كائن لا يوجد له مثيل. كانت توجد بضع قطرات من الدماء على الأرض المغطاة بأوراق الشجر الجافة المتساقطة هناك.

- ألم يعد المكان هناك مظلمًا؟

- لا أحد يجب أن يتحكم في قصتي. لهذا هناك شيء واحد فقط في هذه اللحظة؛ كانت هناك رائحة مرتبطة بالضربة، عطر، أو على الأرجح شيء مثل التوابل.

قبل أن يواصل قيادة السيارة، أضاء الغابة المظلمة بالمصابيح الأمامية القوية لسيارته. بعض الأشجار التي شاهدها ظهرًا لم تعد موجودة هناك. شجر الكرز البري، الجميز، الكستناء الحلو، والهور - كان يوجد هناك هذا التنوع الغريب - اختفى أو لا يمكن رؤيته، بسبب المطر الغزير الذي لا يترك مجالًا للرؤية.

في المقابل، كان أمامه في حزام الغابة كومة من الأجساد المترصعة في حقائب مربوطة، فقط تخرج منها رأس تنظر هنا وهناك. موتى؟ معركة؟ في الحقيقة كانت هذه سرية من الجنود مستلقين على الأرض هناك تحت الأشجار، بسبب الإرهاق نتيجة المسيرة الليلية بالأمس؟ منهكين للغاية لدرجة أن واحدًا

منهم فقط نظر بعين واحدة من داخل حقيبة نومه إلى ضوء المصايح الأمامية الساطعة.

كان المطعم تحت الأرض ممثلًا بدرجة تدعو للدهشة، باستثناء الطاولة المحجوزة للصيدلي مثل كل ليلة، على الرغم من أنه لا تقف بالشارع المبلل أمام المطعم سوى سيارة الطَّبَّاح فقط.

هل هم مسافرين على متن رحلة طيران غير اعتيادية وأرسلهم موظفو المطار على الجانب الآخر من الحقل إلى هنا؟ لكن لو صح هذا، لقدمت لهم جميعًا الوجبة نفسها، وهذا لم يحدث. في المقابل بدا أنهم يعرفون بعض. على الأقل بدا أنهم مألوفين لبعض. كانوا يتبادلون النظرات باستمرار دون أن يتحدثوا بين الطاولات. ولم تكن نظراتهم سريعة ومختلصة كما هو معتاد بين الغرباء في المطاعم، بل أشخاص منتبهين ويشاركون بود الأشخاص على الطاولات المجاورة وفي الوقت ذاته يتركونهم في حالهم.

لم يلتفت أحد للصيدلي عند دخوله المطعم. حتى رأسه لأن باب القبو كان منخفضًا للغاية، لكن سرت رعشة غير ملحوظة بين الحاضرين، رعشة المعرفة، وبدا أنهم سعداء لوجوده هناك، وهو كذلك. وخالجه الشعور ذاته، كأنه التقى هؤلاء الأشخاص في مكان ما ذات مرة، وهذا لم يكن أمرًا سيئًا ولا مزعجًا، بل إشارة طيبة.

على الرغم من هذا لم يفارقه الإحساس بالخطر لحظة واحدة هناك، ليس فقط خطر الصدام، بل خطر الإبادة؛ خطر أن يكون قد فات الأوان في غمضة عين بسبب حركة خاطئة أو تَقَسُّ خاطئ. انتابته قشعريرة. لا ينبغي أن يلاحظ شخص ذلك. لم لا؟ ربما كان السبب كذلك أنه مبتل بسبب المطر. وعلاوة على ذلك كان كل الزبائن ودودين معه. ألم يرتجف بعض الزبائن كذلك؟ إذ كانت قمصانهم وبلوزاتهم مبللة (تساقطت قطرات المطر من الجواكت الصيفية الخفيفة المعلقة على الكراسي، وصنعت هنا وهناك حفر صغيرة في أرض المطعم الطينية القديمة المغطاة بطبقة من الطلاء الشفاف). فقط كانت رعشته ذات طبيعة خاصة، فهي ليست خارجية، بل تأتي من أسفل، كأنها من الأرض. وللحظات لم يعد بالإمكان أن نميز ما إذا كانت الأرض كذلك تهتز بقوة، وليست قدميه فقط. كان عليه أن يتماسك وزحزح الطاولة الثقيلة من مكانها. كان دفء أسابيع الصيف ما زال يسود المطعم. ولم يشعر أحد بالبرودة.

- ما هي طلبات حضرتك؟

سأله صاحب المطعم، الذي كان يعرفه فقط كزبون، ولم يكن يعرف اسمه ولا وظيفته. قبل أن يفتح الزبون فمه، أدرك أن الكلام لا يخرج من فمه. لقد فقد النطق، وهذا لفترة أطول تتخطى هذه اللحظة، لكن لماذا لم يصاحب الفرع

والخوف من الموت، الضربة - أو الضربات - التي أصابت رأسه في الغابة منذ قليل في الظلام الدامس؟ وتخيل لفترة طويلة أنه لم يعد خائفًا من الموت.

فقدان النطق، كيف كان هذا؟ يشبه تقريبًا ما يحدث في الأحلام أحيانًا حين يجب أن تجري، تهرب أو تنقذ شخصًا قريبًا منك، أكثر الأشخاص قربًا منك؛ تنقذه من الماء، من النار، من الهاوية، من وحش، من الشيطان، لكنك لا تستطيع الحركة مثل شوال حجارة ثقيل.

وعلى الرغم من هذا بدأ الآن يتحدث، ويقول ماذا يريد أن يأكل وحرك يده عبر لهب الشمعة الموجودة على الطاولة، عبر الدخان الأزرق الشفاف هناك على أمل أن يساعد الألم اللسان الميت على النطق، لكنه لم يصدر أي صوت.

لم يكن السبب أنه لا يريد أن يأكل. للمرة الأولى من فترة طويلة يكون جائعًا بشدة، ربما بسبب المطر الآن الذي يجعل كل شيء حوله - وليس الطعام - فقط يبدو طازجًا وشهيًا أكثر من ذي قبل.

ثم استيقظت وتفجرت رغبة مختلفة تحفزت وتخزنت بفعل فقدان النطق، يمكن الشعور بتلك الرغبة بدرجة أقل في داخله عنها في الجو بصفة عامة. مثلما يتحدث قول ماثور عن سؤال بأنه معلق، فهذا القول المأثور يمكن أن يسري هنا بطريقة مختلفة. فالرغبة معلقة.

ما هي هذه الرغبة؟ إنها رغبة غير ماهرة وغير مدربة ولم تُمارس أبدًا أو تُنفذ في الواقع، غير معتادة بصفة عامة ولم تُستخدم أبدًا، رغبة صبيانية، مربكة، مخجلة، غير لائقة تعبّر عن نفسها بشكل سيئ وغامض. يمكن الخلط بينها وبين التعبير عن ألم الأسنان، ووجع البطن، وحالات الطوارئ الملحة، أو الخلط بينها وبين التوسل لطلب الرحمة.

لم ينجح في الإشارة إلى الوجبة التي يرغب في تناولها بقائمة الطعام. أخذ يلوح بيده في الهواء. وأوقع دفتر الملاحظات الصغير من يد صاحب المطعم. نصحه صاحب المطعم بطبق اليوم ولحسن الحظ كان الطبق الذي يريده وفسر صاحب المطعم هزة رأسه كموافقة.

قال صاحب المطعم:

- مع تساقط المطر الآن سأقدم لك قريبًا الفطر كطبق جانبي.

ثم أضاف:

- توجد دماء على جبهتك. الكثير من الدماء. هل وقع لك حادث؟ هل اصطدم رأسك بالزجاج الامامي للسيارة؟

ربط صاحب المطعم فوطة غمرها في الماء البارد حول رأس الصيدلي وسط نظرات الجالسين على الطاولة المجاورة الذين شاركوا الحدث في هدوء

ودون فضول، وقالوا بدافع تهديته:

- الوضع ليس سيئًا.

- والفقوة تبدو ملائمة لوجهك، كأنها مصنوعة من أجلك.

استمر المطر يندق على سقف المطعم لساعات، وبدا أن هطول المطر قد يتواصل في تلك الناحية طوال اليوم. بدا أنه بإمكانك رؤية جميع نزلاء المطعم من الخلف ومن أعلى من دون سقف وهم يأكلون في هدوء ومبليين. أحيانًا ترى نفسك في الحلم من الخلف ومعك بضع أشخاص لا تعرفهم كأبطال فيلم مغامرات أنت مشاهده أيضًا.

غادر النزلاء المطعم تدريجيًا ودفعوا الحساب نقدًا بعملات ورقية كبيرة أخرجوها من جيب البنطال. جاء لاصطحابهم تاكسي أو سائقون يمسون بمظلات في أيديهم. اصطدم رأس نصف النزلاء على الأقل بالإطار العلوي لباب المطعم، وكذلك السيدات طويلات القامة. قالت له إحدى السيدات في أثناء مغادرة المطعم وابتسامة سريعة على وجهها:

- حظ سعيد!

أما السيدات الأخريات الواقفات عند باب المطعم فقد رأى في عيونهن جملة - دون حركة أو غمزة - «تصبح على خير». في تلك الأثناء، بدا عليهن جميعًا التشتت والإنهاك، هذا ليس فقط بسبب أن شعور أجسادهن غير حليقة، وخصل شعورهن كذلك. وطريقتهن في المشي، بدا عليهن الانكسار والانهيار، الحيرة واليأس، كأن ولا واحدة منهن متأكدة أن باستطاعتها تخطي هذه الليلة فقط.

في كتاب العصور الوسطى الموجود على الطاولة - التي رُتبت في تلك الأثناء - دُبرت مؤامرة ضد شخص كان بإمكانك في أثناء ذلك رؤية قلبه داخل صدره.

دفع الصيدلي كذلك الحساب نقدًا من جيب بنطاله. (هذا لم يكن جديدًا عليه) وقف فريق العاملين بالمطبخ خلف حائط زجاجي مشبكين أذرعهم أو خافضها حتى غاسل الصحون ذي البشرة الداكنة الذي بدا طويلًا للغاية بالنسبة للمطعم، فكان يحني ظهره ليس فقط عند استخدام صنبور الماء، لكن كذلك عند وضع المواعين في الرفوف بالأعلى.

كان هناك طاولة أخرى ما زالت مشغولة، حيث جلس رجلين. كانا يرتديان نظارات شمس على الرغم من الإضاءة الخافتة بالمطعم. وبدا عليهما الإنهاك بدرجة أقوى من النزلاء الآخرين، أو ربما كانا يتصنعان ذلك، لكن كيف يمكن تفسير أن صاحب المطعم أحضر لهما الآن دفتر الزوار ليوقعها فيه دون تردد؟

وأخيرًا عرف الصيدلي الرجلين؛ أحدهما كان رياضيًا مشهورًا على مستوى الدولة، متزحلقةً على الجليد، حصل على ميدالية أوليمبية ذهبية من أمريكا قبل ثلاثة عقود تقريبًا، وذلك على الرغم من فقدانه إحدى عصا التزلج. والرجل الجالس أمامه كان شاعرًا مشهورًا في الماضي، لاجئًا أجنبيًا كان يكتب حينئذ بلغة ألمانية لم ترد في ذهن السكان المحليين، لكنها كانت مفهومة لكثيرين، وخاصة الجمهور الحقيقي الذي كان يستمع لمحاضراته الشعرية.

ألم يكن رواد المطعم من قبل هؤلاء المشاهير الذين التقوا هنا بالصدفة؟ ربما شجعهم على ذلك مقال يقول إن الطعام جيد، وفي الوقت ذاته تستطيع كإنسان مشهور أن تختبئ من العالم في المطعم الموجود تحت الأرض.

وهكذا، غطا العرق جبهة الرجلين المتبقيين بالمطعم، وشم الصيدلي من بعيد رائحة عرق تنم عن الخوف، ورأى كذلك كيف توقف العرق، ثم بدأ يتصبب فجأة من جديد. وبجواره أخذ الرجلان يضحكان في تلك الأثناء، تارة ترتسم الضحكة على كامل الوجه، وتارة يهتزان من الضحك، وتارة تكون الضحكة نابعة من القلب مثلما يضحك الرضع، سواء أردت أم لم ترد، ودون أن تعرف عمًا يدور الحديث، ليس أمامك سوى أن تشاركهم الضحك. هل غمزا له؟ هل كانا ثملين؟ في ضوء الشموع ظهر على وجنتيهما من الجانبين وشم لقوارض.

ثم جلس الصيدلي في سيارته بالخارج دون أن ينطلق. الأمطار المتساقطة تفرع سقف السيارة بطريقة مختلفة. علاوة على هذا كانت عادته أن يجلس هكذا ببساطة في مكان ما وينظر من خلف الزجاج الأمامي للسيارة أو أن يقرأ. حين كان يسافر كثيرًا، كان عادة ما يرى الناس جالسين في سياراتهم على البحر لا يفعلون شيئًا أو يقرأون، غالبًا على السواحل المنحدرة في اتجاه الغرب، سواء أثناء غروب الشمس أو في وقت آخر، وقد اتخذ من هذا المشهد نموذجًا يُحتذى به.

كيف يمكن أن يكون المطار مظلمًا، أكثر ظلمة من غيره من المرافق المدنية مع كل المدرجات ذات الأضواء الأرضية على الجانبين. الأمطار الغزيرة المتساقطة جعلت من الطريق الزراعي السابق كتلة قوية من القطران التي انزلقت عبر المنحدر، وبرزت أسفلها أجزاء من منزل أو سفينة استخدمت لبناء الطريق؛ قطعة من درابزين، سلم للربط، مقدمة سفينة مقلوبة تمتص الماء المتساقط من السماء في قاعات مجوفة عميقة داخل المنزل أو في بطن السفينة مصدرة صوتًا قويًا.

والآن خرج آخر نزيلين من المطعم تحت الأرض، وأطفأت أنوار المطعم خلفهما مباشرة. سارا من دون معطف أو مظلة ومع أول خطوة أغرقهما المطر، لكنهما تحركا على مهل كأنهما قررا أن يتنزها في ظل هطول الأمطار بغزارة. قاد الصيدلي السيارة بجوارهما ودعاها للركوب. أثناء قيادة السيارة

صمت ثلاثتهم حتى خرجوا من مثلث مدرجات الإقلاع والهبوط، والطرق السريعة وخطوط السكك الحديدية، وكذلك المثلث الطبيعي أو الأنهار الثلاثة التي تصب في بعضها. الجالس خلف عجلة القيادة صمت، لأنه فقد النطق. والرجلين جلسا في الخلف كما في التاكسي وصمنا لأسباب أخرى. نزعا نظارتيهما الداكنة، كانت عينيهما ضيقة ويقظة ولم تعد تنبعث منهما أي رائحة، أو على أقصى تقدير رائحة الشعر المبلل مثل رائحة ريش الدجاج المنزوع بالماء المغلي، في حين لا تنبعث رائحة من ملابسهم المبللة. وعندما جفت ملابسهما سريعًا في السيارة الواسعة ذات التكييف الدافئ، انتقل بطل التزلج السابق إلى المقعد بجوار الصيدلي وبدأ يتحدث معه.

أثناء مرورهم عبر نفق، توقف على الفور قرع قطرات المطر على سقف السيارة. كان صوت الرجل عميقًا وخشنيًا كأنه كان مستلقيًا على الأرض العارية لفترة طويلة. وقال للصيدلي:

- أنا أعرفك منذ فترة طويلة، لقد قدمت لي الإسعافات الأولية في أثناء حادثي الأول في جبال روكي، ثم اختفيت مجددًا مع وصول سيارة الإسعاف. وبعد ذلك رأيتك مرة ثانية في أثناء السباحة في البحر الأسود، كنا نجلس بالخارج بعيدًا مع أصدقاء على متن يخت واعتقدنا أنك نجوت من سفينة غارقة، لكنك أعطيتنا إشارة فقط بأن علينا مواصلة الإبحار باليخت، وكنت تضع فوطة حول رأسك كما هو الحال الآن. أنت تعمل هنا في الحكومة في الخفاء وتتحكم في كل الخيوط.

وحين لم يرد الصيدلي الجالس خلف عجلة القيادة، تحدث الشاعر الذي انقطع عن الكتابة من المقعد الخلفي في أثناء المرور بالنفق الرئيس التالي بجبال الألب بلغة ألمانية ذات لكنة أجنبية تعززت عن عمد بالتاكيد، لكي تجذب الانتباه بشكل أفضل وقال:

-أنا وأنت في العمر نفسه، لكنك تذكرني بوالدي. فأنت تمتلك الود نفسه في التعامل مع الناس مثل والدي، والغرق في الأفكار الذي أنتشله منه بإزعاجي ليضربني فجأة. وعلى غرارهِ فلديك العديد من الأطفال وأنت والد جيد لهم جميعًا. وأنت وحيد والذنب ذنبك، بئس ووحيد. نعم، سرعان ما تشعر بالوحدة عند فتح باب الحجرة، عند إغلاق النافذة، عند الانعطاف إلى طريق فرعي.

الصيدلي الجالس خلف عجلة القيادة لم يستطع أن يقول شيئًا، وربما لم يرد كذلك أن يقول شيئًا وضغط على كلاكس السيارة، لكن الصوت أيضًا جاء ضعيفًا. كان واضحًا فقط أن ثلاثتهم متفرغ ولديهم وقت على الأقل في الأيام التالية. أمامهم يوم عطلة؛ عيد انتقال العذراء إلى السماء، وبالتالي أمامهم عطلة نهاية أسبوع طويلة.

لكن الأمر ذو أهمية بالنسبة للصيدلي فقط؛ فالرجلان ليس لديهما التزامات على ما يبدو، وهذا حتى نهاية حياتهما سواء كانت قريبة أو بعيدة. فليس لهما عمل ولا أسرة منذ فترة طويلة. وفي المقابل معهما أموال أو يتصرفان وكأن معهما أموال، فهما لا يلعبان فقط برزمة من العملات الورقية، بل بيرزان من كلا الجانبين البطاقات الائتمانية اللامعة، لكن ما أظهره هناك لم يكن صادقًا بالتأكيد. لكن هذا لم يشغل بال أحد، علاوة على هذا فإن المال لم يبدو من مصدر قدر، ليس مصدره المخدرات ولا القوادة. على الرغم من أن تلك الأخيرة تبدو مناسبة لهما بسبب الأسماء التي ترد على ألسنتهما، تقريبًا أسماء نساء فقط، أجنبيات. فيهما شيء من رجال العصابات على الرغم من كونهما مهذبين، ويتمتعان في لحظات بأداب اللياقة. والشيء الذي وضعه الشاعر ليحف وكان يشمه باستمرار لم يكن دفتر ملاحظاته، بل لعبة بطاقات البوكر. أما بطل الأولمبياد السابق فقطع طرف خيط متدلٍ من البنطال باستخدام سكين مطوي. قام الرجلان في الوقت ذاته بمص حبوب حتى لا تنبعث رائحة النيذ من فمهما في أثناء الحديث. وقاما في الوقت ذاته بإطفاء السجائر التي أشعلها عند ركوبهما السيارة بشكل ألي.

بدا أنهما رجال عصابات لكونهما مرتحلين ولمجيئهما إلى هذه الناحية؛ فمهما مفتوحان ومجعدان ولا يوجد فيهما أسنان، كما بدا عليهما التوتر كأنهما هربا من شخص كان يضطهدهما لفترة طويلة، أو من أم أو خالة مسنة كانت تهتم بهما. وعدم معرفة وجهتهما، لكنهما في فقدان التوجه هذا تقودهما طاقة تحتقر الموت؛ نوعًا من السعادة البلهاء بلحظات عابرة، وبأبسط التفاصيل، وبسبب كونهما على الطريق يتنقلان، سعادة لا تراها سوى عند الأطفال المنغوليين، كأنهما ليسا فقط خارجين على القانون، بل إنهما فوق أي قانون وكان بإمكانهما السير عبر الجدران وفوق الماء والطيران والتخفي بحيث لا يستطيع أحد رؤيتهما ويسمحان لنفسهما في أثناء ذلك بارتكاب أي جرائم، لأنهما على هذه الشاكلة.

سرعان ما تخيل الصيدلي أنهما هما من ضرباه على رأسه في الغابة خلف المطار وأنه وقع الآن أسيرًا لهما.

ثم رفر فجأة طائر صغير داخل السيارة؛ عصفور. كان الشاعر قد وجده في مكان ما واعتقد أنه ميت ووضعه في جيبه الذي خرج منه العصفور الآن. توقفوا بالسيارة على جانب الطريق وفتح كل منهم النافذة المجاورة له.

حدث هذا بعد منتصف الليل في وادٍ مرتفع من وديان جبال الألب الداخلية بعد عبور بعض الممرات وكانت الأمطار مصحوبة بالبرق والرعد. طار العصفور إلى خارج السيارة ودوى صوت تغريده مثل الصرخة، كأنه لم يكن محبوسًا ودفن حيًا منذ اليوم فقط.

هنا كان يعرف بطل التزلج على الجليد منزلًا قريبًا بإمكانهم أن يبيتوا فيه.
قال:

- تسكن هناك امرأة تمتلك روح الفوز مثل التي كانت لدي في الماضي، لكن
بالتأكيد في مجال آخر لم يرغب في ذكره. وبالطبع لم يسأل عن ذلك كان عدم
طرح الأسئلة منذ بداية الرحلة المشتركة هي إحدى قواعد اللعبة ضمناً.

في أثناء البحث عن الطريق وجد الصيدلي الاتجاه بشكل أفضل من متزلج
الجليد - الذي زعم أنه على دراية بالمكان - على الرغم من الظلام وعدم وجوده
في هذا المكان من قبل أبدًا. وانعطف الصيدلي عند تقاطع طرق حيث المنزل.
في تلك الأثناء، أعلن الشاعر من الخلف خطة اليوم التالي:

- أولاً؛ نعبّر الحدود، حيث أعرف هناك قرية تحتفل غدًا بعيدها السنوي. علاوة
على هذا يعيش هناك ابن غير شرعي له - لدي فقط طفل غير شرعي - لم أراه
من قبل. وهو أيضًا لا يريد أن يراني، ثم نواصل السفر بقدر الإمكان في اتجاه
الجزء الجنوبي من جبال الألب حتى نصل إلى سلسلة الجبال التالية وهي أقل
ارتفاعًا، حيث يمكن أن يتساقط الجليد الآن في الصيف، ويوجد بالأعلى في غابة
بين الأزهار ونبات السرخس ثقب عميق، بئر رأسي ممتلئ طوال العام بالثلج،
وعندما تأخذ قطعة من الثلج وتنصهر، لكنكم سترون وستتفاجؤون بما سيحدث.

كان منزل المرأة يقع مباشرة خلف قمة تل شكّلت فاصلاً للمنطقة. ماء الآبار
في هذا الجانب كانت تتدفق إلى البحر الأسود، والماء على الجانب الآخر كان
يتدفق إلى البحر المتوسط (كما ادعت المرأة). اثنان من تلك الآبار على الجانب
الأيمن والأيسر من الفاصل يتحدان معًا ليكونا نافورة ذات ماسورتين وحوضين
تتدفق منها الماء في اتجاهات مختلفة إلى الشرق والجنوب.

بدا المنزل فجأة - في المنطقة الخالية من السكان البعيدة عن الحي وبعد
عبور قمة التل في الليلة الممطرة - مثل منارة، مبنى منخفض لكن ممتد من
الحجر، حيث لم تكن الأنوار على جانبي البوابة فقط مضاءة، بل الأنوار في كل
الحجرات. في جناح تكون الأنوار خافتة، وفي جناح آخر تكون الأنوار شديدة
السطوع. كل ركن مُضاء وكذلك السقف بالأعلى كان مُضاءً في سطوع ضوء
الشمس نفسه. مع الظلال الكثيرة التي تتحرك وفقًا للنظرة الأولى بين
الحجرات وعبر الأبواب المفتوحة عن آخرها ذهابًا وإيابًا، وفي خطوط متعرجة
ينشأ لديك انطباع بأنها تؤدي رقصة حتى وإن كانت من دون موسيقى ودون أي
نعمة، باستثناء الصوت المضاعف لنافورة التل بالخارج.

ثم اكتشفوا أنهم جاؤوا إلى منزل فيه حالة حداد. فالزوج تُوفِّي ودُفن بالأمس
وزوجته تخلي الجزء الخاص به في المنزل ويساعدها في ذلك جار يسكن بعيدًا.
والسرعة التي كانا يعملان بها والحركات المشتركة والضوء المضاعف الذي
جعل الظلال تتضاعف؛ كل هذا جعل المنزل يبدو ممتلئًا.

لم يتفوه أحدهم بكلمة قبل الذهاب إلى الفراش. كانوا جميعًا مرهقين للغاية. حصل كل منهم على غرفة في منزل مجاور. سمع الصيدلي الشاعر والمتزلج على الجليد يتحدثان معًا في الرواق بأصوات هادئة تبعث على الهدوء، تشبه صوت جدولٍ ماء في الخلاء. نام الصيدلي على الفور. لا شيء مختلف عن المعتاد. كان السرير ضيقًا على عكس سريره الموجود في منزله ذي النصف غير المستعمل. سرير ضيق كما يحب وفي غرفة صغيرة (كان سريرًا جميلًا على عكس سريره في المنزل).

في الليلة الصامتة العميقة فوق التل - حتى صوت النافورة بدا بعيدًا خلف الأفق - استيقظ أو - أيقظه - الضوء الذي اخترق الغرفة، أو قفز إلى داخل الغرفة، كل الأضواء أضاءت في الوقت ذاته.

وقفت المرأة بجوار سريره وهي منتصبه القامة مرتدية معطفًا ثقيلًا، وشعرها مبتل كأنها كانت في الطريق لفترة طويلة ولم تأتِ حالًا من المنزل الرئيس المجاور. جلست أمامه على ركبتيها. وكان وجهها ينظر في اتجاه مختلف تمامًا، نحو النافذة الوحيدة المفتوحة عن آخرها. (هل دخلت الغرفة عبر هذه النافذة؟) وملامحها لا تقارن بتعبيرات وجهها في المساء، حزن فيه مسحة فخر ولا يمكن وصفه. ملامحها فاجأته برقة غير معتادة بالنسبة لها هي ولروح الانتصار المصاحبة لها. ألم يكن في نظرتها نشوة؟ أم تجلٍ؟

لم يتحرك الصيدلي وانتظر. ماذا ستفعل المرأة؟ لأنه كان واضحًا أنها ستفعل شيئًا على الفور. وفي اللحظة التالية ألقت بجسدها فوقه ولكمته. ضربته بعنف يمينًا ويسارًا بقبضتيها، وكانت يديها كبيرة وقوية مثل يد الرجال. وفي تلك الأثناء كانت تنظر بعيدًا.

لم يدافع عن نفسه وبدا كأن الضربات لا تؤلمه بشدة وأنه سليم. وعلى الرغم من هذا ضربته بقسوة وبعنف حتى أنه وقع في النهاية من فوق السرير الضيق. وعندئذ فقط نهضت من فوقه ونظرت إليه لأول مرة نظرة قصيرة وأطفأت النور واختفت بالطريقة التي جاءت بها.

نهض الصيدلي أو سقط عائدًا إلى سريره وغرق في النوم مجددًا في المكان نفسه، كأنه ينفذ الأمر، ثم ضحك فجأة. هل ضحك في الحلم؟

«منذ متى لم أضحك؟»، هكذا فكر على حدود الوعي وكانت الفكرة أكثر وضوحًا وثباتًا في الذاكرة. «لم أتلق كل هذا الكم من الضربات في فترة المدرسة كما حدث اليوم وأمس!».

بقيت في الغرفة رائحة، ليست رائحة عطر حريمي، بل رائحة حريق منزلي صغير، تشبه إلى حد كبير رائحة حجري صوان احتكا ببعضهما طويلا قبل أن

تحدث أول شرارة، بسبب تلك الرائحة صار النفس أسرع وأصعب، وبدا أن النفس لا يأتي منه هو فقط، بل من كثيرين متكديسين معه هناك في الغرفة.

وفي صباح اليوم التالي، كانت أول مرة يجلس فيها لتناول الطعام مع آخرين وليس بمفرده، منذ متى؟ فالشاعر والبطل الأولمبي السابق كانا ينتظرانه في المنزل الرئيس ويجلسان إلى مائدة مُغطاة بجميع أنواع الطعام بطريقة لا تتناسب مع المنطقة الجبلية النائية، لكن الرجلان لم يتناولوا أي شيء من على الطاولة كان إشارة البداية تخص الصيدلي فقط.

علاوة على هذا، قام الشاعر - أخير الشاعر صديقه الرياضي بهذا - بتجهيز كل ما هو ضروري وفرعي حتى أنه أحضر القهوة من هضاب جامايكا وأعدّها وجمع في الصباح الباكر التوت البري والتوت الأسود المبلل بقطرات المطر في طبق، ثم أضاف الشاعر:

- من أجل رحلتنا الأخيرة.

من كان يقصد بضمير الجمع؟ هو أيضًا، «سائقنا» كما أطلق عليه الرجلان ذات مرة، أو «ضيفنا» أو «ثالثنا»؟

بطريقة أو بأخرى بدا أن أي من الرجلين لم ينتبه حتى الآن إلى أن الصيدلي لم يتفوه بكلمة واحدة طوال الوقت. أو أن هذا لم يشغلها، تمامًا مثل حقيقة أنه بالإضافة إلى الجرح الموجود في جبهته، توجد في وجهه سحجات، وفي شفثيه، ووجنتيه بسبب خاتم زواج الأرملة. بدا أنهما منشغلان بنفسهما فقط، وبانهيارهما الذي استمر لسنوات. وفي الوقت ذاته أعطاهما هذا دفعة على الأقل للحظات للحديث عنه.

في الليلة الماضية، صار الشاعر شاهدًا على تكريمه (رثائه) من راديو الحلم.

«قامت امرأة بقراءة أشعاره. وهي مديعة مفضلة بسبب صوتها الرقيق في كل مناسبة، لكن في حالي لم يبدُ صوتها غير مبال فقط، بل شامت وحاقد. وبدا كأن مذنبًا مكروهًا للغاية اختفى؛ عدو للبشرية قُتل. كل ما كتبه طوال حياتي قللت المديعة من شأنه نيابة عن الجميع وبطريقة لا رجعة فيها، ليصبح تافهًا. وتحديدًا تلك الكلمة هي التي أعادت الأمور إلى نصابها بالنسبة لي. يستحق أن يُنسى، قالت المديعة، وفجأة رأيت نفسي لم أعد وحيدًا، أو مُهملاً بدرجة أقل من الأحلام والأيام الماضية. أضافت المديعة: «سلسلة من الإخفاقات والفضائل». ورأيت نفسي أبتسم في أثناء النوم، ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن. فكرت في داخلي، انتظروا فقط، أنا لم أنته من كتابي بعد. وسيكون كتابًا لا مثيل له حتى الآن. لا يُنظر إليه بوصفه كتابًا، لن يكون محل اهتمام، لا يمكن استيعابه، ليس له أهمية، لكنه كتاب.. إذا كان له وجود. الشجيرة ذات الأشواك تحترق.

الكتاب تدور أحداثه على الجانب الآخر من الشجيرات ذات الأشواك، وسلام السماء والرحلات إلى النار».

ارتسمت ضحكة على كامل وجهه - أو هكذا بدا - وعد نقوده، لا يمكنه أن يذهب بعيدًا بهذه النقود. وقف البطل الرياضي السابق بجواره وفرز العملات الورقية والمعدنية أيضًا التي لم تكن كافية، وكان بينها نسخة صفيح مطلية بالذهب من الميدالية التي باعها بثمن رخيص قبل فترة طويلة. وحكى كيف جرب كل أنواع الرياضة تقريبًا بعد نهاية انتصاراته في التزلج على الجليد، ليثبت أن لا مجال يستعصي عليه. نعم، فهو لا بد أن يحقق الانتصارات فيما يفعل.

- حدث هذا لفترة من الزمن على الأقل، وبالتأكيد من أجل الجائزة بحيث يكون الخطر قليل، ودائمًا يقل الخطر أو أطالب بالفوز. ربحت سباقات «موتوكروس» بشكل متسلسل، لكن الخصوم كانوا غالبًا رياضيين يمارسون الرياضة في عطلة نهاية الأسبوع فقط، وجولات الفوز كانت تقام وراء القرى النائية. وفي كل محاولاتي الرياضية الأخرى استطعت أن أنتصر أو أن أتخيل الانتصار عن طريق السفر إلى الخارج أو الاختفاء والذهاب بعيدًا إلى أبعد الدول. وبوصفي لاجئًا أجنبيًا، يكون لي مكانة كما في السابق في وطني كفائز عظيم حتى لو لم أحقق النجاح. وهكذا كنت لمدة موسم النجم في فريق كرة سلة كوري، وانتقلت في العام التالي كلاعب ومدرب إلى مدينة متوسطة الحجم في نيوزلاندا من أجل توطين كرة القدم الأوروبية هناك - ولهذا حظيت بشعبية لفترة من الزمن - وبعد ذلك تألقت في بطولات الجولف في منغوليا، وفي الهوكي الجليدي لـ«إي فيربانكس»، بالأسكا. لكن في النهاية بقي المخرج الوحيد للعودة إلى الوطن فيما يعرف بالحياة المهنية أو بناء محل. كانت روح الانتصار تجري في دمي حتى أنني انتظرتها هنا أيضًا في منافسة مختلفة تمامًا، ولم أتوقع شيئًا مني ولا منك. لقد تمسكت بها. ابتعدا عن الطريق، أيها الخاسرون. لا يوجد لكما مكان هنا. المنتصر يجب أن يكون أنا. أنا المنتصر، ومن غيري؟ وهكذا منذ عشر سنوات أعيش انهيًا تلو الآخر، وأصبح منهارًا أكثر من ذي قبل. وهكذا الآن هي رحلتي الأخيرة. لكن من يعرف، ربما تصبح بمساعدة سائقنا رحلتي الأولى؟ قد يكون خطأ مفيدًا؟ نذهب إلى دولة أجنبية حيث يمكنني أخيرًا أن أكسب من جديد!

ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة وألقى بذراعيه إلى أعلى، لكن هذا لم ينجح بالشكل الصحيح، وبدا لسانه الذي أخرجه ليعبر عن انتصاره أبيض اللون بسبب الإرهاق الجسدي.

استمر تساقط المطر، وبدا أن المطر يشد مع كل لحظة أو يتراكم. ومن ماسورتي النافورة، اندفع الماء وتأل وانطلق إلى بحر هنا، وإلى بحر آخر هناك في القطب المقابل، وإلى شجر التنوب في الغابة الجبلية، وشجرة الصنوبر

الرقيقة التي كانت من دون مقاومة لفترة طويلة أمام المطر المتساقط، على عكس شجر التنوب الأكثر كثافة. بدا الشجر هناك بفعل الأمطار المتساقطة كمن يؤدي ألعابًا مائية.

لا أثر للسيدة في المنزل، أم أنها قامت بتسخين الفرن القرميد الآن في الصيف؟ شعر الصيدلي - الذي يطلقون عليه لقب السائق في أثناء مرافقته الرجلين الآخرين إلى السيارة أسفل مظلة ضخمة موجودة في بوابة الفناء - بشيء في جيب معطفه واعتقد بشكل لا إرادي أنه خطاب قد خُيِّط بداخله.

حين جلس خلف عجلة القيادة في أثناء استكمال الرحلة أخذ يفكر فيما كان يفتقده طوال فترة الصباح؛ منزله؟ المكان المحيط بمنزله؟ الطريق إلى العمل؟ لا، كان شيئًا أغفله أو فوّته. هل كان دواءً محددًا وضروريًا لم يتناوله؟ لا، لم يكن ذلك أيضًا. الأمر يتعلق بطعام ما يفتقده، لم يشعر بضعف واضح الآن.. احتاج طعامًا مقوٍ، لكنهم أفرطوا في طعام الإفطار وتناولوا فقط طعامًا صحيًا أمدهم بالطاقة.

وعلى الرغم من هذا يوجد نقص، أو فراغ، مثل الفراغ الذي يدغدغ في تجويف الفم، حين تجهز على سبيل المثال تفاحة أو قطعة خبز ثم لا تأكلها، فقط الشعور بالنقص ينتقل من تجويف الفم إلى مكان آخر؟ الجسد بأكمله؟ الإنسان كله. الكتاب؟ نعم، فهو لم يقرأ هذا الصباح في الكتاب، لم يقرأ ملحمة العصور الوسطى. وهكذا ينقصه شيء مثل طعام الإفطار. صيدلي متعطش إلى القراءة، هل يوجد مثله؟ (كانت هذه آخر مرة في الفترة التي تدور فيها أحداث قصته، يتذكر فيها أنه صيدلي).

جلس الشاعر على المقعد المجاور للصيدلي وقرأ بصوت مرتفع الأبراج اليومية في صحيفة، والتي بموجبها سيعيش اليوم إحساسًا بالوحدة، لكن لا يجب أن يشعر باليأس، فإذا انفتح على الإمكانيات الموجودة أمامه، فإن طريقة التفكير تلك قد تكون علاج لحالته. لا، ليست تلك القراءة هي التي تفتقر إلى النظام. وعلاوة على هذا لفت الرياضي الجالس في المقعد الخلفي للسيارة انتباه الشاعر إلى أن تاريخ الصحيفة يرجع إلى العام الماضي.

في المقابل، بدا للصيدلي للحظات أن ما يعايشه هنا الآن وما يحدث له وللرجلين منذ مساء أمس سيتم تدوينه ومن الممكن أن يُقرأ، لكن ليس في صحيفة ولا في كتاب. ألم يرد مثل هذا التصور في رأسه من قبل، متى؟ نعم، في بعض ساعات الحب والسعادة الكبرى، وكذلك التعاسة الكبرى مع زوجته - هل كان هذا حقيقيًا؟ - مع أبنائه - هل كان هذا حقيقيًا؟ - مع عشيقته - قبل فترة طويلة أو أن ذلك لم يحدث أبدًا؟ وتلك الصورة ذات الكتابة ظهرت فقط في الليل العميق في ظل الصمت التام والأنفاس المحبوسة.

والآن، أعطاه هذا التصور الفرصة ليقراً حكايته الحالية في وضح النهار، في أثناء قرع قطرات المطر على سقف السيارة، بينما الرجلين يكحان ويهرشان ويتساءبان.

ضغط الصيدلي على دواسة البنزين على عكس طبيعته وانطلقت السيارة على الطريق الجبلي المنحني الواقع بعيداً عن الطريق الإسفلتي، وتجاوزت منحنيًا سريعًا وتجنبت بهذه الطريقة ومن دون قصد الكتلة الحجرية التي سقطت في منتصف الطريق بشكل غير متوقع.

الصيدلي وحده لمح للحظة المرأة التي استضافتهم الليلة الماضية بالأعلى فوق نتوء صخري وهي عائدة من مسرح الجريمة. أما الرجلين الآخرين فتوقفوا عن الهرش والتثاؤب - بالتأكيد عادة للهرش والتثاؤب أكثر من الأول.

عندئذ أدرك الصيدلي مجددًا أنه يتحرك منذ فترة محددة - كما هو الحال الآن - بطريقة مختلفة تمامًا لا يمكن التنبؤ بها وسط خطر يهدد حياته، خطر شديد في الواقع.

إلا أنه قرر عندئذ - على خلاف المرات السابقة التي تعرض فيها لظروف مشابهة - أن يُبقي عينيه وأنفه مفتوحين عن آخرهم ثانية بثانية ولأطول فترة ممكنة في صراع البقاء وأن يصبح شاهداً على مراحل الصراع مرحلة تلو الأخرى، ولكل ما يهدده ويمارس عليه ضغطاً جسدياً أو نفسيًا. لا، بل أكثر من ذلك؛ سيُبقي جميع حواسه متيقظة في حين أن الموت يقترب منه باستمرار، حواسه متيقظة لكل شيء؛ للظواهر الأساسية والثانوية، للعوامل غير المرتبطة بالأحداث. أن ينشط كل حواسه، وربما تكون - لكن هذا ليس السبب - مخرجًا له.

في المرات السابقة حين ضاقت به الأحوال - تاه في الجبال أو علق وسط أشجار شوكية لا يمكن الخلاص منها - كان يستكشف بشكل غريزي فقط، وبمهارته في استخدام يديه وقدميه دون تفكير ودقات قلبه تصم أذنيه.. في حالة الغرق لا يحرك ساقيه دون فائدة، بل يسبح في اتجاه اليابسة، لكنه يدرك في تلك الأثناء عدم وجود يابسة، لا شيء.

المرّة الأولى كانت في طفولته عند الهروب فجراً في نهاية الحرب مع والديه عبر الحدود الملغومة. والآن خطرت بباله صورة لهذا المشهد، صورة الفجر، فجر بارد، دون نسمة هواء ودون ضباب، فجر لا يختفي ولا ينتهي، بالتأكيد كان هناك من يطاردهم، لكنه لم يرههم.

الآن، فتح عينيه في لحظة تفادي الصخرة وشاهد بجانب المرأة هناك بالأعلى شيئاً مثل أشباح أو خيالات ورؤوسهم تصل إلى السماء الممتلئة بالسحب، بسبب التفاعل بين رذاذ المطر وشعاع الشمس الضعيف. كان وهماً ازدادت

حدثه في مجال رؤيته. نعم، كان مجالاً، حتى وإن كان غريباً. وإذا لم ترجع المرأة من هناك، لأرسل لها إشارة لتنتبه له.

في الوقت الذي كانت تدور فيه أحداث هذه القصة تؤدي تقاطعات هذا الطريق البعيد الذي هم فيه الآن إلى طريق زراعي صغير ناءٍ في ميدان؛ بل في القارة بأكملها.

وهذا الدوران يؤدي إلى طرق إقليمية، ويكثر استخدامه لأنه يتفرع منه الكثير من الطرق الجانبية. لم يكن معتاداً على القيادة في طريق مستقيم مع تصور أن يتحرك في النهاية نحو هدف ما أو على الأقل أن يتحرك بحرية، ويتخطى دورانياً تلو الآخر وهكذا.

وفي نهاية مثل هذه الرحلة، التي تستغرق أياماً، من الممكن أن يفقد الإحساس بالاتجاه الذي كانت تسلكه الرحلة طوال الوقت، ويفقد كذلك الإحساس بالرحلة. ربما تحدث دوخة كالتي تحدث عند ركوب الأرجوحة الدوارة لفترة طويلة، وتنتهي في المكان نفسه الذي بدأت منه. هكذا يكون الإحساس عند الوصول إلى بلد مختلفة تماماً.

لا يمكن فقط أن تصاب بدوار عند الوصول إلى وجهة بعيدة وهمية، بل كذلك كل سفر أو ترحال يكون مملاً ويصيب بتوعك - يكون أكثر إزعاجاً من دوار البحر - مع شعور بالتقزز من كل أنواع الحركة.

في الوقت الذي تدور فيه أحداث هذه القصة لم يعد بالإمكان عبور الممرات المرتفعة بالسيارة. فمعظم الممرات في أوروبا كانت خارج نطاق الخدمة ولا يمكن استخدامها عادة بسبب الصخور المتساقطة، التي لم يتم إزالتها والحفر الناتجة عن الأمطار. وبدلاً من الممرات المرتفعة بالأعلى، كان الناس يعبرون القارة بالأسفل عبر الأنفاق ويقطعون مسافات طويلة ويعبرون دورانات مرورية كثيرة.

وعلى الرغم من أن الحدود تتزايد - توجد حدود كثيرة كما لم يحدث من قبل - فإنها تبقى غالباً غير ملحوظة لوجودها في منتصف نفق، وكذلك لأن كل النقاط الحدودية أزيلت، ولا وجود لحرس الحدود في أي مكان.

أسهم حفر تلك الأنفاق في هذه القارة في أن كل رحلة تستغرق فترة طويلة تشبه ركوب قطار الأشباح، الذي يبدو أن باب النزول به موجود بجوار باب الصعود مباشرة. الانطلاق إلى بلد أجنبي كبير مليء بالمغامرات لتجد نفسك في النهاية كأنك أمام باب منزلك، أمام الباب ذاته وعلامة مشابهة على سجادة باب أو على الأقل في شارع يشبه الشارع المحلي المألوف سواء في المدينة أو الضاحية أو القرية. الخروج من النفق والعودة إلى المنزل.. إلى المكان الذي ربما لم يعد يرغب في العودة إليه أبداً.

ما حدث لثلاثتهم هذا اليوم كان مختلفًا تمامًا. في الواقع، توقفوا وانعطفوا في منحنيات، وبآلاف الدورانات والتحويلات المرورية، وتحركوا باستمرار في وسط تكديس لملايين السيارات الأخرى عبر حوالي خمسمائة نفق قصير وطويل، لكن مزاجهم وحالتهم، سواء الداخلية أو الخارجية كانت أقوى من كل تلك المعطيات.

كانت الحالة المزاجية لكل واحد منهم مختلفة عن الآخر؛ الشاعر كان متوترًا ومن بين الأسباب، لأنه قد يرى طفله الذي لا يعرفه، «أشعر بتوتر أقل بسبب الأم». أما النجم الأولمبي السابق فكان لديه فضول إذا كان سيجد هناك في هذا البلد الأجنبي - فريق تزلج على الجليد (لكن أيضًا فريق كرة قدم أو فريق من العدائين) - شيء يجذب انتباهه. أما الصيدلي فكان لديه اشتياق فريد مدرب على يديه فقط في فترة شبابه القصيرة كما تبدو له، ممتزجًا بحزن غير معتاد تمامًا بالنسبة له.

في المقابل كانوا مشتركين في الحالة، أو الوعي؛ بمغامرة خطيرة غير محددة يخاطرون فيها بالكثير، بل بكل شيء، مغامرة على الحدود نحو المسموح، وغير القانوني والأعمال الإجرامية كذلك. ضد القانون؟ ضد سير العالم؟ وربما لا يستطيع أحد منهم أن يقول من أين جاء مثل هذا الوعي المشترك. وما فعلوه هناك أو ما قد يفعلوه يضعهم تحت طائلة القانون الذي لا يوجد فيه تسامح. لكن لا مجال أمامهم للتراجع. وهكذا فقد عايشوا رحلتهم على الرغم من كل شيء كتجربة جديدة مختلفة.

قاد الصيدلي السيارة ببطء. علاوة على أنه لم يتعامل أبدًا مع السرعة بالشكل الصحيح، ولم ينجح حتى الآن مرة واحدة في أن يركب القطار السريع. والمرات القليلة التي استقل فيها طائرة كان يعتقد أنه سيموت بسبب السرعة خاصة عند إقلاع الطائرة حين يمكنك الإحساس بالسرعة. وبعد تجربته الأولى كان يتجنب المقعد المجاور للنافذة، على الرغم من أن هذا لم يساعده كثيرًا. إن السرعة لا تؤثر فقط على عينيه، بل على جسده بالكامل؛ فهي تكاد تقتله.

وهذا كان يحدث له في وقت مبكر تمامًا وقبل فترة طويلة من أول رحلة له بالطائرة. فعند سرعة محددة يصاب بتوقف الحواس وليس السمع والبصر فقط. وكذلك حين يركب الدراجة فإنه يفقد بين لحظة وأخرى القدرة على التحكم في جسده ويصبح السقوط أمر حتمي. وأصيب بضع مرات بارتجاج في المخ حتى لاحظ أن تلك الحوادث بسبب السماء الصافية، وليست بسبب الدراجة والطريق أو لعدم مهارته. مثل الذين يعانون من فوبيا الأماكن المغلقة ويخافون من الأماكن المرتفعة، يعاني هو أيضًا من ما يطلق عليه فوبيا السرعة أو الخوف من السرعة، خوف ينشأ ويجعله يفقد اتزانه للحظات عند مقياس محدد. لا، بل عند مقياس لا يمكن تحديده.

حدث السيارة الوحيد الذي وقع له كان بهذه الطريقة، إذ إنه اندمج في الحديث مع شخص جالس بجواره لدرجة أنه تخطى حد السرعة الخاص به وحده دون أن يلاحظ ذلك، وأصبح فجأة غير قادر على أن يمسك بعجلة القيادة وهكذا وقع الحادث. (من الجيد هنا أنه فقد القدرة على النطق وبدلاً من أن يتكلم، أخذ يفكر في صمت أو ينصت للآخرين في السيارة، الأمر الذي لا يجعله يسرع في القيادة).

حكى لي الصيدلي:

- كان يمكن أن أسقط ضحية للسرعة حتى بصفتي مشاهدًا أو مراقبًا محايدًا للأحداث. تلك السرعات كانت بالتأكيد ذات ظروف خاصة، كما حدث ذات مرة في سباق «فورميلا وان» الذي كنت أشاهده في الطبيعة الحرة وليس في التليفزيون بناءً على تحريض من زوجتي، التي كانت مغرمة بالسرعة وتزدهر في أثناء ذلك كما لا يحدث في أي مكان آخر وتُظهر جمالها بأكملها، لتبدو لي كساحرة السرعة الجميلة الرائعة التي تخيفني أحيانًا.

أو المرة الثانية في سباق «هانين كام» أشهر سباق للتزلج على الجليد في الشتاء، حيث سافر من أجل زوجته أيضًا إلى «كتسبويل» لمشاهدة الأبطال مرة واحدة بالحجم الطبيعي. هتفت زوجته ابتهاجًا عند ظهور عربات السباق على قمة الهضبة البركانية أو الجرف الأطلسي، لم أعد أعرف إذا كانت في «إيفيل» أو «إشتوريل»، ارتعدت حرفيًا من المشهد وتشبثت بزوجتي، فقد كانت السرعة لا يمكن تخيلها، أسرع مما نشاهده في التليفزيون بطريقة لا تُقارن، هل يسرع هؤلاء الطيارون لهذا السبب بسرعة غير طبيعية؟ لا، إنها سرعتهم فوق الأرض. يكونون في لحظة في مكان، وفي اللحظة التالية يصبحون في مكان آخر. صدرت عني وعن زوجتي صرخة مشتركة، في حالة زوجتي كانت صرخة ابتهاج، لكن في حالتي كانت صرخة خوف، خوف شديد.

وفي سباق التزلج على الجليد بمنطقة «كتسبويل» حينئذ حدث له أمر مشابه؛ حين تحرك المتسابق الأول بسرعة كبيرة هناك بالأعلى قادمًا من الغابة إلى المنحدر النهائي الطويل المائل بسرعه الخارجة عن الكوكب أو غير الآدمية، أصابه هذا المشهد بضربة على رأسه. على الرغم من أنه وجد المشهد حماسيًا مثل السيدة الموجودة بجانبه على العكس من سيارات السباق. لكنه لم يصرخ هذه المرة، وفي المقابل لم يتفوه بكلمة لفترة طويلة. سألته:

- كما حدث هناك في الغابة؟

- نعم، لم تكن المرة الأولى.

وبطل التزلج السابق الجالس بالخلف في السيارة الآن، ألم يكن حينئذ الفائز في سباق «هانين كام»؟، قال الآن الكثير لنفسه، كأنه قرأ أفكار الصيدلي وأجابه

قائلاً:

- من الضروري أن تتأقلم مع السرعة. من لا يفعل هذا سيصبح غير قادر على التأقلم مع الحياة، وهذا لا يسري على اليوم فقط.

- أعتقد أنني استقلت بحياتي وأصبحت إنساناً مستقلاً فقط في اللحظة التي اخترت فيها السرعة، أو التي استسلمت فيها للسرعة.. لأقصى سرعة ممكنة. عالجتني السرعة من الحالة المزرية التي كنت عليها والأناية دون أن أفقد كياني. السرعة تجعلني أشعر أنني في منزلي. ربما أصبحت فاشلاً اليوم لأنني لم أعد سريعاً. (ضحك فجأة ضحكة قصيرة).

بدا للثنين الآخرين أنه يقود السيارة على مهل. لديهم متسع من الوقت. على الأقل كانت هذه الجملة تتردد باستمرار مثل القسم. «لدينا متسع من الوقت». قال الشاعر في أثناء تكديس مروري أمام نفق:

- إن عيد القرية التي نحن ذاهبون إليها يستغرق عدة أيام، علاوة على أن الاحتفال به يُقام في الليل.

كان لديهم متسع من الوقت وتوقفوا أكثر من مرة في أحد المطاعم الأوروبية الموجودة على جانب الطريق، حيث تناولوا الطعام وهم واقفون. كان لديهم متسع من الوقت. انعطفوا عند الدوران إلى طريق زراعي ونزلوا من السيارة - باستثناء الصيدلي الذي ظل جالساً - ووقفوا في المطر قليلاً. دخلوا عددًا غير قليل من المحلات الموجودة في محطات البنزين، واشتروا وجبات خفيفة واستعرضوا أمام السائق الذي يرافقه عدد اللغات التي يجيدونها.

استمر تساقط المطر، وخفت ضوء النهار. تخطتهم سيارة بسرعة كبيرة لدرجة أن قائد السيارة جذب عجلة القيادة في الاتجاه الآخر.

ألم تكن المرأة - التي قضوا الليلة الماضية في منزلها - تجلس في السيارة طراز «سانتانا»؟ لفت انتباهه أنه لم يرها حتى الآن من الأمام حتى في أثناء ضربها له، رآها على أقصى تقدير من الجانب، على سبيل المثال حين وقفت في بوابة المنزل في أثناء وصول ثلاثتهم كأرملة حزينة لا يمكن الحديث معها.

كان النفق الأخير طويلاً بشكل غير معتاد. على الرغم من ذلك، تمكنوا من رؤية الجانب الآخر منه حيث سيصلون في النهاية. يمكن رؤيته من بعيد، في البداية صغير للغاية، وكأنك تنظر عبر ورقة ملفوفة بأضيق ما يمكن، أو عبر ثقب صغير في خشب حظيرة ما أو عبر دائرة بحجم نقطة في كف يدك.

قاد الصيدلي السيارة أبطأ من ذي قبل. كان النفق مستقيماً لدرجة أنه لم يكن مضطراً لأن ينتبه إلى عجلة القيادة. ظلت نهاية النفق مستوية تماماً في الصورة، ثم بدأت تكبر بشكل غير ملحوظ. كانت نهاية النفق تشبه لوحة لفترة من الوقت لدرجة أنها بدت لوحة متحركة، هذا ما ظهر في ثقب الضوء داخل

النفق المظلم (لم تكن أنوار النفق مضاءة كما لم يستخدم الصيدلي أنوار السيارة.. نسي ذلك تمامًا بسبب بقعة الضوء البعيدة. بدا وكأن هذا لم يزعج أحدًا في السيارة، فقد ركزوا نظرهم على شيء واحد فقط.

تؤدي نهاية النفق إلى الخلاء، ربما هذه ليست خدعة؟ بدت صورة مخرج النفق جامدة واصطناعية مع الضوء الساطع سطوع الشمس، الذي لا يخفت أبدًا، لدرجة أنها بدت في أعينهم وقبل عبور المخرج وكأنها جزء من النفق؛ صورة مصغرة ذات ألوان زاهية والضوء مسلط عليها.. بدت هناك أمامهم كلوحة مرسومة على خلفية مظلمة تمامًا، تشبه وميض الكلوروفيل أو حواف الصخور الحمراء الممتزجة بالأصفر.

كل هذا أعطاهم للحظة طويلة للغاية انطباعًا بأنهم لا يتحركون بالسيارة. ربما كان عليهم أن يهتزوا معها قليلًا، وعلى الفور قد يظهر المخرج - أي مخرج؟ - مخرج النفق.

وبطريقة غريبة، ازداد الانطباع، أو الهلوسة، كلما ازداد حجم صورة مخرج النفق تدريجيًا. المساحة متعددة الألوان تتحرك نحوهم وتزداد كبرًا، في حين لا يظهر عليها أي حركة. ظهرت بها شجيرات وحشائش تعكس الضوء بوضوح، وتنبض بالحياة وحجمها كبير. ظلت كل تلك التفاصيل جامدة. أين هم؟ هل هم في مكان ما؟ لماذا لا يسافر أحد في هذا النفق؟، لم تمر في الاتجاه المقابل سيارة واحدة.

كادت فتحة النفق الآن أن تحتل مساحة الصورة بأكملها ذات الألوان الزاهية كما في البداية. «ممر الشر» تذكر الصيدلي هذا التعبير الذي ورد في الملحمة كوصف للصراع مع الموت المؤكد. وفي الوقت ذاته، كان هذا الآن رائعًا. تفاجأ أنه لا شيء يدفعه لیسرع، كما كان الحال في الصباح.

والآن فقط، دارت عجلات السيارة بضع مرات قبل أن يتلعبها النفق. تحركت الصور الصخرية ذات اللون الأصفر الداكن في المكان، وتحركت المساحات ذات الحشائش والشجيرات في جميع الاتجاهات كأنما أطلقتها تعويذة طيبة. بعيدًا، تحركت الأشجار بحرية أكثر في لحظة الخروج من النفق.. حتى جذورها السميكة تحركت، والمنحدرات الصخرية امتدت مكانيًا خارج النفق على جانبي الطريق، وأعطت مساحة أكثر للوافدين الجدد.

صَفَّق أحد الجالسين في السيارة كما يحدث عند الهبوط بعد رحلة طيران ما وراء البحار في مكان جميل واعد. وبمغادرة النفق بدأ يوم جديد، أو كان من الممكن أن يبدأ بفضل هذا النفق. مغامرة غريبة. مغامرة اليوم.

على كل حال، كانوا في هذه اللحظة يستعدون للعيد الذي اقتربوا منه. وكانوا سعداء بهذا. هل كان السائق، الغريب - ثالثهم الذي لم يوجه له الاثنان الآخرا

أسئلة - سعيدًا؟

قال لي الصيدلي:

- نعم، أنا أيضًا داهمتني فجأة - ولأول مرة منذ فترة طويلة - رغبة في الاحتفال. في أثناء القيادة عبر النفق، كانت هذه هي أول مرة في الرحلة التي أفكر في الشاعر والبطل الأولمبي وفي نفسي، فينا نحن. كنا سعداء بما هو قادم. عادة لم يكن بإمكانني التفكير في «نحن».

وفيما يخض الظروف الخارجية، مر اليوم الجديد في رمشة عين بعد دوران عجلة السيارة بضع مرات. فقط، بعبور النفق، كان اليوم التالي قد حل، وأضاءت الشمس كل شيء.

في الواقع، انكسرت أشعة الشمس. من الواضح أن المطر لا يتساقط هنا ولم يتساقط. كانت السماء خالية من السحب. اللافت أن الجو بدا خريفياً يقترب من الشتاء. هل سبب ذلك أن الطبيعة كانت مرتفعة، الأرض مرتفعة؟

في الواقع مرت الكثير من الشاحنات والمقطورات بشكل يدعو للدهشة، وكانت محملة عن آخرها بالحطب. والمنازل المنتشرة على الطريق الزراعي يحيط بها الفحم ويصل إلى النوافذ وحتى السقف. ماذا تفعل كل تلك الشاحنات والمقطورات على الطرق؟ أليس اليوم يوم عطلة؟ وفي المنطقة هنا يمثل يومًا ذا طبيعة خاصة، أكبر عيد في العام.

لم يعرف الشاعر الطريق، لكنها لم تكن أول مرة في الرحلة يتوه فيها؛ فهو لم يأت إلى القرية بالسيارة من قبل. علاوة على هذا، لم يتذكر اسم القرية. كل ما كان يعرفه: «أن اسمها رنان ومشهور». سُميت القرية على اسم مدينة مشهورة عالميًا. أو ربما العكس، سُميت المدينة المشهورة على اسم القرية قبل وقت بعيد، وأن اسم القرية هو الاسم الأصلي؟ أو ربما توجد على مستوى العالم قرى كثيرة تحمل الاسم نفسه، وهي مستقلة عن بعضها وأطلق عليها هذا الاسم بسبب موقعها الخاص في الطبيعة، أو ربما بسبب القديس المشترك بينها أو ببساطة بسبب الإيقاع، وواحدة فقط من تلك القرى هي التي أصبحت مشهورة على كل لسان.

- ما اسم القرية التي يعيش فيها طفلي؟ «بيلو هوريزون»؟ الإسكندرية؟ «لودي»؟ بيت لحم؟ «سان سيباستيان»؟ «سانتياجو»؟ «فورت أباتشي»؟ يمكن أن يكون اسمها أيضًا «مانيلا» أو «دانسك».

وعلى الرغم من أن الشاعر وصف للرياضي - الذي زار تقريبًا كل مكان بالعالم - القرية حتى أدق التفاصيل، وبدا أن الشاعر في كامل تركيزه، فإن الرياضي لم يستطع مساعدته. والطريق الصخري الواسع منتظم الشكل يجعل كل القرى تبدو متشابهة، على الأقل بالنسبة لشخص مثل الرياضي الذي زارها

مرة واحدة فقط. الآن، في المساء، تبدو أكثر تشابهًا، وعلاوة على ذلك فإن البطل الرياضي حين زار تلك المنطقة لم ينتبه للتفاصيل الصغيرة التي يحكيها الشاعر.

بالإضافة إلى شيء آخر، الكثير من لافتات الأماكن التي مروا بها بالسيارة تحمل اسم مكان كبير معروف، أو تُظهر قرابة لاسم معروف مما يؤدي إلى الخلط بين القرى. إن لافتات أسماء الأماكن تلك لا تؤدي إلى نتيجة على الإطلاق على المدى القصير؛ لكن على المدى الطويل لم يعد هناك شيء متبقٍ من هذا المكان، والشاعر يهز رأسه يمناً ويسرة ويشعر بالذنب.

وهكذا مروا بـ«القديس كوينتن»، و«لوفن»، و«سانتو دومينجو»، و«البندقية»، و«راجوسا»، و«بيريوس»، والقدس، و«رانجون»، وقرى متفرقة وضيعة مثل «روزنتال»، و«ترويا»، و«أريحا»، و«بومباي»، و«القبر المقدس»، و«سان سيبولكرو»، و«مونتيري/ جبل الملك» - لافتات ثنائية اللغة - و«لايدن»، و«بيتل»، و«دالاس»، و«لوستناو»، و«لييناو»، و«فالبارايسو»، و«بوسطن»، ومروا كذلك على لوحة إرشادية تحمل اسم «تاكسهام» (كأنه يوجد في العالم مدينتان على الأقل تحملان الاسم نفسه).

لم يتوقف سائق السيارة طويلاً عند أيٍّ من تلك الأسماء. ولم يلتفت إلى الشاعر ليسأله، واكتفى بقيادة السيارة في الطريق وعلى يمينه ويساره تمر القرى بسرعة أكبر كأنه يعرف إلى أين يذهب.

حين توقفوا بالسيارة قبل «القديس كوينتن»، فك الخطاب المخيط في بدلته دون أن ينتبه له أحد وفتح الخطاب، ثم ألقى عليه نظرة سريعة دون أن يقرأه بتمعن. كان مع الخطاب رسم توضيحي مرسوم فيه وجهتهم ومكتوب اسم القرية، وأسهم واضحة تشير إلى الطريق.

مما يثير الضحك (أو ربما لا)؛ كان اسم القرية «سانتا فيه» وهي واحدة من حوالي ألف على مستوى كل القارات (بالتأكيد هناك واحدة في أستراليا أو في آسيا، في ولاية «غوا» الهندية أو بالقرب من مدينة «ماكاو» الصينية).

بالتأكيد كان بإمكانهم أن يحاولوا التوجه ناحية أصوات الاحتفال أو ناحية الضوء في الطبيعة الصخرية والصحراوية التي تنقل الصوت بوضوح، فعندما تتوقف وتنصت تسمع أصواتًا بسيطة من بعيد، لكن الشاحنات الممتلئة بالحطب اختفت فجأة مع نهاية ساعات العمل. وسرعان ما اتضح أنه لا توجد قرية في المنطقة لا تحتفل بعيدها الخاص في هذا اليوم، حتى عند تقاطع الطرق حيث يوجد منزلان إلى ثلاثة منازل أقيمت بجانبهم خيمة؛ لتظل على تلك المباني متوسطة الارتفاع، وكانت الخيمة يصدر منها ضوءًا ودخانًا وبخار ماء وأصواتًا.

حكى لي السائق:

- لا بد أن أقول إننا في البداية كنا نتوقف هنا وهناك ليس فقط لنستكشف الأمر، بل للمشاركة والرقص والغناء واللعب - على الأقل هذا ما كان يقوم به البطل الرياضي والشاعر - كانت روح المغامرة لدى الاثنين جديدة بالملاحظة؛ كيف أن أحدهما انضم للرقص ولم يلحظ أحد من الناس أنه دخل أو غريب؟ وكيف وقف الآخر في موكب وأمسك عمود المظلة التي يوجد أسفلها تمثال الإلهة الأم؟ كيف نزل أحدهما من السيارة وشارك في لعبة الأسهم الموجودة في رواق ما وفاز بزجاجة نبيذ؟ وكيف عزف الآخر على آلة موسيقية حرة، وصق له العازف الحقيقي بعد العودة من الاستراحة؟ والشيء الفريد كان أن أحدهما يمكن أن يكون الآخر. غالبًا ما أصابني الشاعر بالدهشة. ومن ناحية أخرى، نسيت في تلك الأثناء أنني يجب أن أتعامل مع مثل هذا الشخص، ثم اتضح لي أن الوحيد من بيننا الذي يمتلك الدافع للوصول إلى الهدف هو أنا.

لم يتعرف الشاعر على قرية «سانتا فيه» في البداية على الرغم من التل الصخري المائل الذي تقع فوقه. يوجد عند سفح التل نهران يصب كل منهما في الآخر، ويغسلان التل البارز أسفل مجموعة المنازل المتبقية بالمنطقة. فقط حين انعكس الضوء الأمامي للسيارة على لافتة بيضاوية فيها معلومات عن ارتفاع المكان عن سطح البحر - يقترب من ألف متر فوق سطح البحر المتوسط - هتف الشاعر قائلاً:

- ها هي القرية، لقد وصلنا.

ثم غرق في صمت مفاجئ وربما لا يكون السبب أنه الآن لا يعرف الاتجاه إلى عشيقته السابقة وطفله.

ظهرت في كل مكان بالمدينة - لا، لم تكن قرية - في الجزء العلوي من المدينة والجزء السفلي كذلك أماكن للاحتفال. كان مكتوبًا في الرسم التوضيحي اسم الشارع أو الحارة التي يجب أن يذهبوا إليها. عرض السائق الرسم التوضيحي للشاعر في صمت، في حين طوى الجواب. لم يبدي الشاعر أي دهشة.

لم يستطع أحد من المارة الذين سألناهم أن يعطونا أي معلومات عن الطريق. هل كانوا هم أيضًا غرباء على المكان؟ لا، لكن في الفترة التي كانت تدور فيها أحداث القصة لم يكن معظم السكان المحليين والمقيمين منذ فترة طويلة على دراية بالمنطقة، وكانوا يعرفون بالكاد المنطقة المحيطة بهم. في البداية بدا كأن كل الذين سألناهم عن معلومات هم مسافرين قادمين من الدولة نفسها التي نحن منها. والسبب في هذا يرجع إلى أنهم بمجرد أن فتحوا نوافذ السيارة، سمعوا الأشخاص الواقفين حول السيارة في الخلاء وفي مجموعات كبيرة يحتفلون بحيوية، يتحدثون ألمانية مألوفة لهم. نعم، اللهجة النمساوية.. لا، لقد كانت لهجة مختلفة تمامًا، لهجة سكان مدينة «سانتا فيه».

(كان مرافقيه في السيارة يتنافسان في الحديث بتلك اللهجة مع الناس في الشارع، لكي يثبتوا أنهما يجيدان تلك اللهجة)، هل كل اللغات تبدو متشابهة في نغمتها من على بعد؟

كذلك من على مسافة قريبة يبدو تقطيع عبارات اللغة متشابهًا عالميًا لدرجة أن المتحدثين يمكن أن يتبادلوا الأدوار؛ حين يلقي الغرباء التحية قائلين «Hola»، «Buenas noches»، «Adios»، «Gracias» فإنهم يحصلون على الرد «Hi»، «Halo»، «Guten Tag»، «Tschüs»، «Ciao»، «you were welcome»، «Servus»، «Auf Wiedersehen». وبالمثل كان هناك محل مكتوب اسمه بالنيون «Mozart» (صالون ماكينات القمار)، والمحل الثاني يحمل اسم «Tyrol» (بنسيون دون إفطار)، والثالث يحمل اسم «Mainz» (بار ليلي مبني من الداخل بالقرميد الأندلسي العربي).

يومض الضوء من حارة منحدره ضيقة مظلمة ربما جُر أحدهم عبر تلك الحارة ذات مرة إلى مكتب تحقيقات محلي. وينبعث الضوء كذلك من حانة «Gösser Bier» أو «Hannen Alt» مع العبارات الخاصة بهما التي كتبت باللغة الألمانية فقط.

هل ذهبوا بعيدًا عن مدينة «سالزبورج»؟ هل إذا أضاء نور قوي الصخرة الصلبة الساقطة عموديًا، لاستطاع الحي القديم هنا أن يعرض القلعة الموجودة هناك؟ نعم، لقد كانوا هناك، في مدينة «سانتا فيه» الفريدة، بعيدًا عن «سالزبورج»، بعيدًا عن «تاكسهام»، بعيدًا، يشعرون بوجود سماء أخرى وخاصة بريح الليل التي تأتي عبر نوافذ السيارة المفتوحة.

«بعيدًا».. من الذي حدد هذا الأمر؟ هم أنفسهم، حالتهم المزاجية، وضعهم، ثم القصة، الحكاية. حقيقة أنهم تعرفوا على بعض في الطريق وفي أثناء الحكاية. إدراك أنهم يعيشون حكاية، علاوة على كونها حكاية مشتركة، أعطاهم شعورًا بالبعد، حتى وإن لم يغادروا منازلهم؟

سألني صيدلي «تاكسهام» بعد ذلك بفترة طويلة:

- هل يحدث لك أحيانًا أن تبحث عن شيء لفترة طويلة بلا جدوى وتجده فجأة أمامك؟ هذا ما حدث معي في أمسية وصولنا إلى مدينة «سانتا فيه» آنذاك. بعد التسكع طويلًا عبر المدينة صعودًا وهبوطًا، عرفت فجأة المكان الذي نريد الذهاب إليه. لم أعرف حتى أنني قد لا أستطيع الحديث عن الأمر، كنت أتحرك بين لحظة وأخرى دون تردد، يقودني القمر، أو كوكب غريب، أو رياح الليل التي كانت تهب وتلامس وجوهنا. وخطر على بالي اسم آخر لمدينة «سانتا فيه» المضيئة أو المزعجة الغامضة قليلًا في قصتي؛ مدينة الرياح الليلية.. هكذا أريد أن أدعوها هنا أيضًا. وهكذا وصلنا إلى الشارع الذي نبحت عنه ووقفنا أمام المنزل مباشرة.

هتف الشاعر مجددًا:

- ها قد وصلنا.

دون أن يبدي اندهاشًا من السائق، كأنه هو الذي أرشدهم إلى المنزل:

- هذه الطوبة الوحيدة التي سقطت من السور وما زال في داخل السور فتحة عش لطائر صغير.

قال الرياضي الجالس بالخلف:

- نعم، إنه هناك، عش العصفور في فتحة السور.

قال ذلك وكأنه خبير متخصص في المنطقة، وقضى طفولته في الشارع هنا.

في تلك الليلة، كان من الصعب التعرف على شيء في الشارع المؤدي إلى هناك. في الواقع، أنير الشارع بشكل إضافي من أجل العيد القومي؛ بمصباح قوية، وكشافات من منازل مفتوحة عن آخرها أو جراجات، لكنها تنير أماكن محددة، لدرجة أن هناك مسافات طويلة كانت أكثر ظلمة.

حين وصلوا أمام المنزل المقصود، أصابهم العمى. أدرك السائق في نهاية الشارع أن هناك مسافة طويلة مظلمة، مسافة لا يصل إليها الضوء حيث لا يؤدي الطريق إلى شيء، بل ينتهي عند نقطة ما. على كل حال، هم غير موجودين الآن في الجزء المرتفع من المدينة، والمكان المحيط بهم كانت إضاءته في قوة الشمس أو إضاءة المسرح.

وعلى الرغم من أنه شعر في يديه، وكذلك في كل مكان بجسده برائحة منزله قبل أن يغادره، واستطاع أن يميز الروائح المختلفة ويذكرها؛ روائح الحجرات، الروائح المنبعثة من الحديقة، ومن الغابة في طريق المطار، ومن المطعم الموجود تحت الأرض، ومن النهر الموجود على الحدود، وعلقت به نتيجة للسباحة في النهر. مرت الآن على أنفه مع رياح الليل من وسط الظلام هناك في نهاية الشارع رائحة، ظن في البداية أنها رائحة السعادة.. اندهش. قال فيما بعد:

- لكن المرات التي استطعت أن أتحدث فيها عن السعادة كنت دائمًا كأنني أتفوق على ذاتي.. والعقاب يعقب ذلك على الفور.

وضع الثلاثة أيديهم على أعينهم لحمايتها من الضوء الشديد ونظروا حولهم يتأملون الاحتفال المُقام بالشارع. كان باب المنزل الذي يبحثون عنه هو الوحيد المغلق في الشارع. والأضواء الكثيرة في المنزل لم تكن سوى انعكاسًا للأضواء الموجودة خارجه. فيما عدا ذلك، كان المنزل يشبه المنازل الأخرى في المساحة، واستواء السطح والارتفاع. وشكل المنزل مع المنازل الملتصقة به عن يمينه ويساره صفاً من الحجر الجيري. تطاير الدخان من المدخنة بفعل

الخشب المحترق. لا يوجد الخرز الزجاجي المعتاد أمام الباب أو الحبال المعدنية ولا يوجد كذلك جرس.

لم يرَ الشاعر ضرورة في أن يسرع بطرق الباب ودخول المنزل. بدا أنه يبحث في البداية عن طريقة ظهوره في الشارع مع الرجلين الآخرين كمرافقين له، لكن على الرغم من أنه عاش هنا عدة سنوات ومن المفترض أنه يحظى بشهرة في هذا المكان، لم يتعرف عليه أحد الآن أو أنهم يتجاهلوه (حتى وإن تظاهر الآن بأنه شخص مهم، فإنه لم يلفت الانتباه إليه). على أقصى تقدير يقف أحدهم معه للحظة، ثم لا يعرف ماذا يفعل معه. والشاعر كذلك لم يتعرف على أحد. قال:

- ربما يكونوا قد رحلوا جميعًا.

أراد أن يلقي التحية على جار قديم، لكن هذا كان ابن الجار. وعندما عرفه الشاعر بنفسه وحكى له عن نفسه وعن والده وتاريخ الشارع، بدا له أنه لا يعرفه.

قال الشاعر:

- لم تعد هناك تقاليد.

وعندما تكرر الأمر مرة ثانية وتحدث مع جارة سابقة له، اكتشف بعد ذلك أنها حفيدتها.

- في أي وقت أعيش؟ هل أخطأت في الوقت؟

لم يتعرف أحد على البطل الأولمبي السابق في الشارع وهذا يرجع إلى سبب وحيد وواضح، حتى وإن كانت صورة قديمة له معروفة للجميع وكانت معه تلك الصورة وقدمها للناس، فإن مظهره قد تغير خلال الربع قرن الماضي، إذ لم يتبق ملامح واحد في وجهه كما هو، كمن خضع لعملية جراحية واختلف شكله بعدها تمامًا. لم يتغير لون وجهه فقط، بل كذلك لون عينيه. لذلك كانت الصدمة كبيرة حين يتعرف عليه أحدهم:

- هذا ليس أنت؟ بحق السماء!

سمع بطل التزلج هذه العبارة في وطنه بضع مرات. هنا بالتأكيد لا توجد إمكانية لأن يتعرف عليه أحد؛ أو، لا توجد خطورة من أن يتعرف عليه أحد.

الوحيد من الثلاثة الذي وجّه إليه كلامًا كثيرًا، وليس مرة واحدة فقط، كان السائق وكان يسير خلفهما في ظلهما.

- كنت قبل قليل في التلفزيون، في فيلم عن الغرب الأمريكي.

- أنا أعرفك، أنت الطبيب الذي وجد علاجًا لمرض لا أتذكر اسمه.

- هاي، ما الذي جاء بك إلى بلدنا المهجورة وإلى منطقتنا المنعزلة عن العالم، وفوق كل هذا إلى الزقاق المسدود؟

من جانبه لم يرد على تلك الأسئلة وتصرف كأنه لا يفهم اللغة، واستطاع بهذه الطريقة أن يخفي أنه فقد القدرة على الكلام، إذ ساعده كل من الشاعر والبطل الرياضي عن طريق التعامل مع هذا اللبس، ولعب دور حراسه الشخصيين ومترجميه الفوريين والمتحدثين باسمه.

معظم الناس في الشارع الطويل الذي تظهر في كل جوانبه مظاهر الاحتفال لم يكونوا منشغلين بأنفسهم فقط، بل انشغلوا كذلك بالنجوم. كانت ظاهرة معتادة لدى الكثير من الشباب في الخلاء، وكان لها تأثير مبهج عليهم عن طريق الظهور المتكرر، وأحيانًا تأثير ممتع ذو طابع أسري.

- وطن عالمي.

هكذا قال الشاعر وهو ينظر إلى مجموعة من الشباب الذين أفسحوا الطريق بحيث يستطيع شخص واحد فقط المرور، أو وهو يشير إلى زوجين ينظر أحدهما في وجه الآخر باحثًا عن انعكاسه، وإذا وجد الرجل أو المرأة هذا الانعكاس، يقترب كل منهما من الآخر، ويتضاعف الحنان، أو يشير إلى شخص يقف في الظلام يتلقى مداعبات رياح الليل.

علق الشاعر قائلاً:

- غير صحيح على الإطلاق أن «نارسييس» وقع في حب انعكاس صورته على ماء البحيرة، بل الحقيقة هي أنه كان موهوبًا أو ربما سيطر عليه حب عالمي قوي. فقد ولد ونشأ وبداخله حب للمخلوقات وللظواهر من أطراف أصابعه وحتى أبعد نقطة في الكون. و«نارسييس» الشاب كان يجسد الحب ولم يتمن شيئًا آخر سوى أن يحتضن العالم بأكمله بين ذراعيه. لكن العالم، عالم البشر على الأقل، لم يسمح بهذا وابتعد عنه ولم يبادل نظرات الحب. وحماسه للحياة وحبه للأشياء المعروفة وغير المعروفة، لم يجد مرسى له في أي مكان. وهكذا، اضطر بمرور الوقت أن يبحث بمفرده عن مرسى داخله. وبهذه الطريقة انغلق «نارسييس» عاشق العالم على نفسه وانهار في النهاية. لكن على كل حال كان هذا جيدًا، بل أفضل؛ لأن من الممكن بدلًا من هذا أن يصبح مستكشفًا للعالم، مقاتلاً، رجل دولة، منظرًا اجتماعيًا، واعظًا، سوط الرب، نبيًا، مؤسس ديانة، شاعرًا إقليميًا أو عالميًا.

رد عليه البطل الأولمبي قائلاً:

- لا بد أنك تعرف عمَّن تتحدث.

قال الشاعر:

- نعم، أنا أيضًا لم أَسعَ أبدًا لعمل أي شيء جميل، أو نموذجي أو مفيد أو خالد. ربما كان هذا جيدًا بالنسبة لي في نهاية الأمر، لكنني دائمًا ما أردت قبل كل شيء أن أفعل شيئًا جيدًا. نعم، شيء جيد. وأدركت هذا فقط حين صار الوقت متأخرًا.

لم يكن الشباب وحدهم في الشارع المقام به احتفالات من يتصرفون مثل أبطال الروايات؛ فبجانب النار المشتعلة في الخلاء ظهر طفل رضيع في سيارة أطفال ويبدو أنه تعلم الجلوس للتو، وبشير بيده إلى البالغين يقومون بشوي حمل ويصرخ كأنه القائد الأعلى للقوات المسلحة في المنطقة، وفي الوقت ذاته يلف رأسه باحثًا عن المشاهدين ليرى إذا كانوا مندهشين مما يفعل.

ووقف الكاهن منتظرًا أمام الكنيسة - التي لم تكن أكبر حجمًا من المنازل - زائري القديس المقام بمناسبة الاحتفال، ولأن مدخل الكنيسة الصغيرة بلا سلم، فقد وقف الكاهن على حجر دفعه إلى هناك وأخذ يراقب كل المتسكعين وكل من يدخل الكنيسة كأنه رجل شرطة مختص بالمنطقة. وقف في أكثر بقعة مضيئة بالشارع رجل عجوز مصاب بالجذام. هذا المرض ما زال موجودًا هنا؟ نعم، كان الرجل تقريبًا بلا أنف ولا شفاه ولا أذن. وقف في ضوء الكشافات المعدة من أجل فرقة موسيقية لم تصل بعد. لف الرجل رأسه بحثًا عن أشخاص قد يستطيع التحدث إليهم، ليس بغرض إجراء حوار معهم، بل فقط من أجل أن يلقي بكلام يتكون من كلمات بذئية. وبسبب عدم تناسق ملامحه، انبعث شعاع حاد من عينيه الشابتين المرسومتين بوضوح شديد. وقفت بجواره في شعاع الضوء سيدة عجوز مجنونة ترقص وترفع وجهها إلى سماء الليل، وتلقي نظرة من أعلى على كل من يحاول أن يتجاهلها.

وهكذا وصل ثلاثتهم إلى نهاية الشارع؛ ليستطلعوا إلى أين يؤدي، وإذا كان يؤدي إلى مكان ما فإنك لن تستطيع رؤية شيء بسبب أضواء الكشافات. علاوة على هذا، دوى الآن النداء الأخير لأجراس الكنيسة التي تشبه الطرق على عبوة صفيح فارغة معلقة. وأصبح الشارع خاليًا بفعل تلك الضربات. ظل بالخارج فقط بعض رجال الإطفاء. في هذا الجو، الغرباء موجودون أيضًا من أجل العبادة، وقف الكاهن بالداخل في المذبح الصغير على أطراف أصابعه كأنه مستعد للقتال وانتظرهم. بعد أن ألقى الكاهن نظرة على كل الحاضرين - مندهشًا من أن الزوار وجدوا مكانًا لهم في قاعة الكنيسة المنكمشة بفعل الألف شمعة - وألقى نظرة ترحيب من أعماق قلبه على ثلاثتهم.

بالطريقة نفسها، ظهر أهل الشارع في القديس داخل الكنيسة بشكل مختلف، أو فقد كل منهم على الأقل الأشياء اللافتة للنظر، وصفاته المميزة وظلوا هكذا لفترة من الوقت. كانت هناك لوحة معلقة فوق طاولة المذبح، مرسومة ومعلقة بوضوح بمناسبة رحلة صعود السيدة العذراء إلى السماء.

يظهر من السيدة العذراء بالأسفل فقط باطن قدميها العاريين السوداوين بفعل العمل في الحقل، وفي الأعلى تظهر عيناها وهما تنظران إلى السماء بوضوح وبينهما سحابة كبيرة ملونة؛ بالنسبة لشخص هاوٍ فرسم عينيها كان أسهل من رسم جسد كامل.

ذهب الشاعر يتبعه الرياضي إلى القربان المقدس مثلما فعل معظم الموجودين في الكنيسة، فأصبح لدى الصيدلي وقت أخيرًا ليقرأ الخطاب الذي حيك في معطفه. جاء نص الخطاب كالآتي:

«لقد لفظت ابنك في نوبة غضب خاطئة؛ ولهذا نمت وحة على جبهتك وستموت بسبب هذه الوحة. تم استئصال تلك الوحة، لكنني سأعمل على أن تنمو من جديد. حتى وإن اضطررت أن أضربك عشر مرات. نعم، كنت مضطرة، لأنني أيضًا تألمت. أتمنى لك ليلة سعيدة في «ساتنا فيه» عند حافة السهل!».

بعد انتهاء القداس، ظل الصيدلي لفترة من الوقت داخل الكنيسة. ذهب الشاعر والبطل الرياضي إلى الخارج بحثًا عن ابنة الشاعر. وعلى الرغم من أجواء الشموع والبخور والدخان المتنوع المتصاعد من الشوي بالشارع أصبحت الآن كذلك تلك الرائحة القادمة من بعيد مع رياح الليل هي المسيطرة. حكى الصيدلي قائلاً:

- أنصت بتركيز، كأن الروائح والإنصات مرتبطان ببعضهما.

وفي الوقت ذاته، أخذ يراقب سيدتين شابتين كانتا تقفان في زاوية مضيئة بالكنيسة بجوار تمثال ممدد هناك للمسيح.

كان التمثال لجثة عارية تقريبًا بالحجم الطبيعي، وملون بكل ألوان الحياة، ومغطى بطبقة من الزجاج، إذ أن كل جزء من جسد المسيح صقله النحات بمنتهى الدقة وجعله يحظى بلمعة إضافية. وكما هو معتاد في مدينة الرياح الليلية، انحنى الفتاتان الآن فوق الجسد النابض بالحياة وقبلاه من رأسه حتى قدميه. فعلتا هذا برقة ودون أن تلمسا جبهته وعينه وفمه بشفتيهما، أيديهما مطوية فوق صدريهما. فقط في النهاية حين انتصبتا، ألقنا نظرة على الجسد الممدد أمامهما ومسحت إحداهما على خصر المتوفى بسرعة وتحسست جسده بأطراف أصابعها ثم غمزت للمرأة الثانية التي غمزت لها أيضًا، كل واحدة منهما كانت صورة طبق الأصل من الأخرى؛ الحواجب مرفوعة، وابتسامة مع شفاه مغلقة كما يفعل المتواطئون والشركاء في الجريمة. وربما لن يتفاجأ على الإطلاق إذا نهض المسيح المتوفى، كما يزعمون فجأة بسبب مسح جسده بيديهما.

كان يوجد بالخارج مسرح من أجل ملكة حفل الشارع ووصيفاتها والخدم. وجد الصيدلي هناك أيضًا الشاعر والبطل الرياضي.

في دقائق الصمت المتزايد قبل دخول حاشية الملك، تحدث الشاعر مجددًا فيما يشبه مناجاة النفس، وكأنه يعرف أفكار الصيدلي وقرأ معه الأفكار الواردة في خطاب التهديد الموجه له. قال الشاعر ما يلي:

- تسود بين الرجل والمرأة في الآونة الأخيرة العداوة. لقد فقد الرجال والنساء في يومنا هذا الترابط الموجود بينهما، بلا استثناء. أنا على سبيل المثال لم يعد لي أعداء منذ فترة طويلة - هذا الأمر لم يعد محل نقاش - لكن إذا كان لي عدو، فهي امرأة. الأمر لا يتمثل فقط في أنهم لم يعدن يغرمن بنا، بل إنهن يحاربوننا. وإذا كان الحب جزءًا من اللعبة، فهو يُستخدم فقط من أجل بدأ الحرب. عاجلاً أم آجلاً ستصاب المرأة التي تحبك بطريقة أو بأخرى بخيبة أمل بسببك ولن تعرف أبدًا لماذا. قد تقول إنها اكتشفت حقيقتك دون أن تخبرك ما الذي اكتشفته. ولن تجعلك تنسى لحظة واحدة أن حقيقتك انكشفت، لأنها لن تتركك بمفردك الآن في لعبة الحب، على كل حال ليس كما فعلت من قبل. وخلال وجودها المستمر لن يعود باستطاعتك أن تهرب من الأفكار السيئة التي تظنها فيك. أنت ذاتك لا تفكر في نفسك بوصفك مخادعًا وكذابًا ومحتالًا، وتتمنى أن تظل بالنسبة لها رجل جيد كما كنت في بداية العلاقة. لكنك مجبر على أن ترى نفسك بكل هذه الصفات في عينيها التي لن تتركك من الآن، وسترى فيهما ما فعلت وما لم تفعل، تأكيدًا على رأيها السيئ فيك وخيبة أملها المريرة. افعل ما تشاء، ستبقى المخادع الذي اكتشف أمره لا شيء فيك يمكن أن يفاجئ المرأة. حتى وإن حققت لها ما تحلم به وتتمناه لحياتها في السر، فإنها ستنتظر لك وهي ترفع حاجبيها. وحتى إذا مت من أجلها، فإنها ستظل منحنية فوقك في جمود لتمنعك بهذه الطريقة من أن ترى شيئًا آخر في لحظاتك الأخيرة. نعم، الكره ينتظر الرجل والمرأة منذ بداية اليوم. لم يوجد من قبل أبدًا مثل هذا القدر من القذارة بين الجنسين كما هو الآن. والأشخاص غير القذرين هم الأغبياء. ربما كان الوضع هكذا دائمًا. وحتى إن كان كذلك، فإنه بالتأكيد لم يكن بهذا السوء والوضوح. هل كنا في الماضي نحتمل بعض أكثر في صمت؟ ربما كان هذا أفضل مما يحدث الآن؟ على كل حال هذا هو الوضع العام، وليس قاصرًا عليّ وعليك فقط. لا يوجد زوجان سواء صغار السن أو كبار السن لا يمكن أن ينفصلا فجأة في وقت ما، واليوم يحدث هذا الانفصال في الواقع بلا استثناء - حتى وإن تكتما من جديد أمر هذا الانفصال - هذا الانفصال ينشأ من البداية بين الرجل والمرأة على الأقل في الوقت الحالي. أليس من الأفضل إداً فصل الرجال والنساء عن بعض على الفور عند اللقاء الأول؟ وبدلاً من نظرة عميقة، ومن حمرة الخجل والشحوب، وبدلاً من وخزة في القلب، يحدث صدام عنيف؟ ولماذا لا يترك الرجال المتحضرين النساء المتحضرات في سلام والعكس

صحيح. على الأقل لفترة من الوقت؟ على كل حال لقد تركتني النساء في سلام لفترة من الزمن.

ثم جلسوا إلى إحدى الموائد الطويلة في الخلاء وتناولوا الطعام مع أهل الشارع. أخيرًا، ظهر على المسرح المقابل لهم حاشية القصر. كانوا جميعًا شبانًا صغار السن، رأوا بعضهم قبل العرض متفرقين في الشارع. بدت الفتيات والشباب على طبيعتهم حيث تخلوا عن سلوكياتهم السابقة، ولم يكن هذا بسبب الأزياء الداكنة فقط. ظهروا الآن مجتمعين، وهو ما كانوا عليه في الحقيقة. لم يكونوا يجسدون أدوارًا على المسرح، ولم يكونوا بحاجة إلى التمثيل. فقد كانوا جميعًا رجالًا ونساءً من أصول نبيلة أو هكذا يُقال على أمثالهم. لم يكن السبب في هذا يرجع إلى الأزياء أو التاج أو مواصفاتهم الجسدية، بل إلى الطريقة التي يحتل كل منهم بها مكانه على المسرح ويراه بها الناس.

انتقل هذا النبل إلى المشاهدين. خصوصًا وأن ملكة الحفل كانت قادرة على أن توحد أهل الشارع ليصبحوا شعبها دون أن تحرك إصبعًا واحدًا. وهذا يرجع إلى جمال المرأة الشابة التي كانت خارج ذلك الحفل مراهقة وطفلة جميلة بالتأكيد، لكن جمالها لا يثيرك ولا يغريك. وإذا تسببت في إثارتك، فإنها إثارة من النوع الذي يحركك ويثير داخلك ذكرى لشيء غير محدد وغير واضح، يتضح فقط الآن مع تلك النظرة. ينبعث من الفتاة التي تلعب دور الملكة جمال يمس كل شخص موجود، كأن تلك الفتاة من أقرب أقاربه.

أحد الحاضرين تعرّف عليها بالفعل كواحدة من أقاربه. وفي الوقت الذي عزفت فيه الفرقة الموسيقية على الأبواق والمزامير، سمع الصيدلي بجواره صوتًا غريبًا عليه تمامًا، يهتف باسم غير مفهوم. هل كان الشاعر يصرخ باسم ابنته التي رآها لأول مرة؟ صرخ في اتجاهها قائلاً إنه والدها. وصاح الشاعر:

-لقد جئت، أنا والدك.

ثم قال للناس الذين التفتوا نحوه:

-نعم، أنا والدها.

التفتت الملكة نحوه دون أن تغير تعبيرات وجهها التي توحى بأنها هنا من أجل الجميع. وللحظة، صارت السعادة واضحة عليها، لفترة قصيرة للغاية، إلا أن السعادة لو كان لديها الوقت الكافي لغيّرت وجه الفتاة بأكمله لتصبح أجمل فتاة في الحفل.

قال لي الصيدلي:

- لم تصل الفتاة إلى هذه المرحلة من السعادة. فجأة، أصبحت الفتاة قبيحة. أصابها الأمر بالذعر. بدا أنها قد نظرت إلى والدها، لكنها في الحقيقة نظرت إلى

شيء ما خلفه. لا بد أن أحكي هذا الآن بشكل مقتضب؛ ظهر هناك للتو بعض رجال الشرطة. ألقوا القبض على الملكة الصغيرة أمام أعين الجميع. في أثناء القبض عليها بحثت عن والدها عبر أكتاف الناس. ترك والدها كل شيء وجرى خلفها ورافقه البطل الرياضي. وغادر ثلاثتهم مع سيارة الشرطة بعد أن أظهر كل من الشاعر وصديقه هويتهم لرجال الشرطة. بقيت جالسًا في مكاني وحيدًا بلا حركة.

سألته:

- وماذا حدث بعد ذلك؟ ألم تكن والدة الفتاة موجودة على مقربة من الأحداث؟ العشيقة السابقة للشاعر؟

أجاب الصيدلي:

-لا.

سألته:

-هل توفت؟

أجاب صيدلي «تاكسها»:

-لا توجد وفاة في قصتي. أحيانًا تكون لحظات حزينة، ومن حين لآخر لحظات يائسة، لكن لا أحد يُتوفى.

سألته:

-إدًا، ماذا حدث لها؟

- هل نسيت ماذا حدث للأم؟ أم أنك لم تحسم هذا الأمر؟ دعنا نترك أمر والدة الملكة دون حسم، لكن ما أريد حسمه هو لماذا بقيت جالسًا في مكاني بلا حركة في أثناء القبض على الفتاة. لقد عايشت المشهد نفسه ذات مرة مع ابني. فقد جاء رجال الشرطة إلى المنزل وألقوا القبض عليه وأداروا ذراعيه خلف ظهره. نظر لي النظرة نفسها التي نظرتها ابنة الشاعر. بالنسبة للفتاة، فأنا لا أعرف حتى الآن لماذا قبض عليها، لكن ابني كان لصًا.

هذا يعني أنه في المرة الأولى التي ألقى عليه القبض فيها كان السبب سرقة أدوات رياضية لتقليد زملائه بالمدرسة. فهو لم يكن منعزلًا، بل كان بين أقرانه وكان يسرق لكي يحافظ على كيان المجموعة، ويبدو أنه كان يقوم بها بدون اقتناع أو رغبة، ببساطة حتى يستطيع أن يشاركهم في الحديث. تلقيت مكالمة هاتفية آنذاك لأذهب وأحضره من القسم. اكتفوا بتحذيره، وكان عليه أن يحضر بضع حصص التربية في مكتب رعاية الشباب. احتضنت ابني في الشارع أمام القسم. حين كنت أحضنه قبل ذلك، كنت أشعر بمعارضة منه. لكن هذه المرة لم يعترض، وانخرطنا في البكاء، لكن بعد ذلك صفعته بقوة على وجهه. ليس لدي

تفسير لهذا. ربما لأن من بين كل الأفعال المخالفة للقانون، فإن السرقة هي أكثر ما يجعلني أشعر بالاشمئزاز، بل إنني أكره مجرد التلميح إلى السرقة؛ مثل استخدام تعبيرات «ذو يد طويلة» و«ذو يد خفيفة». وكذلك فإن تعبيرات الوجه وتكشيرته مثل هذا اللص، ملامحه وتعبيرات وجه اللص في أثناء السرقة تصيني باشمئزاز - أما اللص المحترف فلا يظهر شيء غير طبيعي على ملامح وجهه - كأني أشاهد أكبر فعل مخالف للطبيعة. من ناحية أخرى لم يكن ارتباطي بابني قوياً أبداً من قبل، كما كان في هذه اللحظة أمام القسم. سرقت ذات مرة في أثناء غيابه واختفائه، كانت سرقة صغيرة وبسيطة، سرقت علكة أو قلم رصاص. لكن هذا الفعل لم يُعد إليّ ابني.

بدا له فيما بعد أنه ظل طوال الليلة جالساً وكذلك طوال أيام وليالي الاحتفال التالية. أتمنى لو أنني أجلس هناك الآن بينما يحكي لي في الوقت ذاته قصته. هناك شيء ما يجب إضافته؛ تعرّف على ابنه بين الموسيقيين الذين ينتقلون من طاولة إلى أخرى في الشارع في أثناء تلك الليلة.

استمر الاحتفال على أفضل نحو على الرغم من القبض على الملكة، إذ بدأ عزف الموسيقى بعد لحظات الفزع الأولى (في الفترة القصيرة بين غلق آخر باب بسيارة الشرطة واختفائها عن الأنظار وعزف أول بوق، ظهر الشعب الواقف هناك في الخلاء كاليد الواحدة كما لم يظهر من قبل ومن بعد، بسبب الذعر المشترك، لم يكن ذعراً يمنعك من النظر في أعين الآخرين).

كانت فرقة موسيقية تتكون من مجموعة من العازفين من دون مطرب، معظمهم من العجر ويبدو أنهم من الأسرة أو العشيرة نفسها. لكن حتى بعض العازفين الذين لا ينتمون للعجر وبشرتهم فاتحة اللون وشقراء، كانوا جزءاً من العائلة بوضوح. كانوا يعزفون على آلات النفخ فقط، آلات صغيرة وقصيرة، كانت الأبواق قصيرة مثل المزامير. وهكذا دَوَّت الموسيقى كضجيج عنيف قصير متقطع يستمد إيقاعه من التعثر المتجانس، ليكون نشيد فخر بلا حرج. ضجيج على شكل نشيد؟ نعم.

كانت الهارمونيكا هي الآلة الوحيدة المختلفة، وكانت لافتة للنظر، ويمكن سماعها بوضوح فقط حين تعزف بمفردها أجزاءً من لحن رقيق مقارنة بضجيج إيقاع الأبواق والمزامير. كان ابنه يعزف على الهارمونيكا. وكان الوحيد من بين الغرباء في المجموعة الذي يمكن أن يكون عضواً في العشيرة.

قال لي صيدلي «تاكسهام»:

- إن شعوره بعدم ارتياح نحو العجر لفترة طويلة، لم يكن مجرد حكم مسبق. من غير الضروري أن أذكر أنني في شبابي، شعرت بالانجذاب إليهم أو للقصص التي يحكونها. لكن، فيما بعد، تعرضتُ خلال سنوات سفري وترحالي للسطو والسرقة عدة مرات، وتقريباً في كل مرة على يد العجر. حكيت هذا أيضاً لابني

وأخبرته أن رؤية هذا الشعب من بعيد، حتى ولو كانوا أطفالاً صغارًا لا تثير داخلي الكراهية، بل الذعر، وأشعر على الفور مجددًا بالسكاكين في بطني، وأيدي العجر الكثيرة التي امتدت أسفل قميصي ووصلت حتى إبطي.

والآن، يقابل ابنه بين هؤلاء العجر؛ لم يكن يرتدي مثلهم فقط، بل كان نسخة منهم. لم يعرف ماذا يطلق عليه.. إن كلمة «وقح» غير مناسبة، وكذلك كلمة «متلون»، الأفضل القول إنه موجود وغير موجود، لا يمكن الاقتراب منه.

نظر الابن أيضًا في أثناء العزف إلى والده بود دون أن يقصد النظر إليه بصفة خاصة؛ كان الود نفسه الذي ينظر به كل أعضاء الفرقة الآخرين الذين انبعثت من أبواقهم لمعة أقوى من اللمعة المنبعثة من الهارمونيكا المتواضعة.

كان الأب عاجزًا عن أن يغمز لابنه وظل هكذا أيامًا وليالي حتى نهاية العيد. انتقل الموسيقيون إلى الطاولة التالية وقاموا بجولة في الشارع، ومروا عليه في شروق شمس اليوم التالي وغروبه بأبواقهم اللامعة والابن ودود دون أن تظهر عليه علامات الإرهاق ومعه الهارمونيكا الخاصة به.

حدث شيء آخر في ليلة الاحتفال الأولى.. ظهرت المرأة على الطاولة الطويلة من ناحية نافورة الماء، الأرملة، البطلة الرياضية التي ضربته وألقت عليه الحجر. ظهرت بشكل غير متوقع هناك من الظلام. أراد الصيدلي أن يتراجع أمامها بضع خطوات، ليس بسبب الخوف، لكن بفعل المفاجأة، لكنه لم يقدر على ذلك. وهي لم تفعل شيئًا سوى التجول حوله لفترة طويلة، وجهها يبعد عن وجهه شبرًا واحدًا فقط، وهي صامته وتراقبه بعينها الواسعتين اللتين بدا أنهما تريدان التخلص منه.

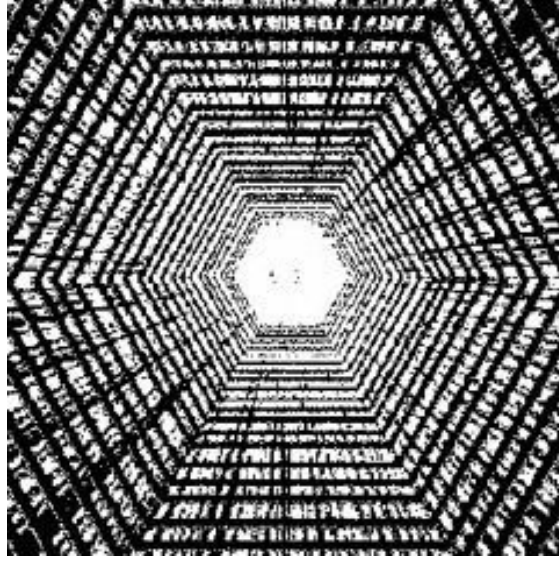
في وقت ما استطاع أن يلقي عليها التحية وبيتسم لها، لكنها لم تقم برد فعل ودارت حوله للمرة الأخيرة، ثم اختفت واستدارت في أثناء ذلك لتلقي نظرة أخيرة عليه تشبه النظرات السابقة.

هل نام على الإطلاق في أثناء الاحتفال؟ لا لم ينم، حسبما يتذكر. ظل مستيقظًا بضعة أيام وليال؛ الأمر الذي طالما دار بمخيلته كتجربة أو كنقطة تحول ممكنة. ومن ناحية أخرى، علقت برأسه صورة من الوقت الذي قضاه هناك وهو يستيقظ في حجرة بفندق - كان في الشارع فندق صغير بجوار الكنيسة مباشرة - وللحظة استلقت المرأة الغربية على سريره الضيق وظهرها له.

سرعان ما عاد الشاعر والبطل الرياضي إلى الاحتفال وتتوسطهما ملكة الحفل التي أطلق سراحتها. ظل ثلاثهم صامتين لفترة طويلة تمامًا مثل الصيدلي. (لاحظ الشاعر أخيرًا أن السائق لم ينطق بكلمة واحدة طوال الوقت).

حكى لي صيدلي «تاكسهام»:

- بالنسبة للجميع وحتى بالنسبة لابني الذي سرعان ما غاب عن عيني - رأيت
في النهاية يرقص مع ملكة الحفل الشابة - لم أكن تعيشًا على الإطلاق ولم أتمن
أن أكون في مكان آخر. فكرت، هكذا هو الأمر إِدًّا! الأهم، هو الوجود هناك
بالخارج والاستمتاع بنسيم الليل مع الآخرين، مع هؤلاء الناس تحديدًا لفترة من
الوقت، ثم بعدها سأرى ماذا سيحدث.



ظل الصيدلي الذي حكى لي تلك القصة طوال أيام العيد خارج البلاد. وترك إدارة الصيدلية في أثناء تلك الفترة لموظفيه الاثنيين؛ الأم وابنها اللاجئين الفارين من الحرب الأهلية. كانا على دراية جيدة بالأدوية التي تُستخدم لعلاج آلام الجسد وبالأدوية الأخرى، وكانا يعرفان كذلك الجرعات الصحيحة وكمياتها، وعلاوة على هذا، تعلموا الكثير مما عايشوه بوضوح وتحسن حالة المريض وتخلصه من شكواه بعد فترة قصيرة.

سكن الصيدلي في البداية في فندق صغير بشارع يقع في الجزء السفلي من المدينة. واتضح مع أول خيوط النهار أن الشارع يؤدي مباشرة إلى سهب رملي صخري يبدو من مظهره أنه خال من العمران. من نافذة الفندق الصغير ظهر السهب غير مستوي، بل ورأى فيه أماكن مرتفعة ومساحات مستوية مع ارتفاعات بسيطة. امتد طولاً وعرضاً إلى الخلاء وصولاً إلى الأفق، باستثناء الجزء الواقع خلف ظهره، فقد كان خارج نطاق رؤيته بفعل متاهة البيوت الكبيرة والصغيرة، لأن الجزء السفلي من المدينة والحد الفاصل مع الجزء العلوي يقعان على جرف صخري ممتد. كانت المدينة بأكملها محاطة بأرض قاحلة بامتداد الرؤية وهو ما جعلها تبدو منعزلة عن باقي القارة التي يصعب الوصول إليها.

على الأقل في الفترة التي كانت تدور فيها أحداث القصة، اعتادت القطارات المرور عبر السهب بضع مرات في اليوم؛ «أم أن أصوات الأبواق التي أسمعها الآن صادرة عن شاحنة بعيدة؟» لو أنه لا وجود لذلك المطار، لسكنت الطيور وحدها السماء طوال النهار. لا بد أن طريقاً جويّاً يمر فوق المنطقة، لكنه لا

يستخدم كثيرًا، حيث يمكنك أن ترى خطين أو ثلاثة خطوط في السماء يوميًا بفعل الطائرات، لكنك على كل حال لست منعزلًا هنا عن باقي العالم. كان بإمكانك أن ترى تلك الخطوط البيضاء التي تحدثها الطائرات بالأعلى في زرقة السماء. يمكن رؤية الطائرة المسببة لتلك الخطوط في إحدى المرات غير المعتادة، فتبدو وكأنها تومض، أو يمكن حتى سماعها للحظات؛ مصدر صوت خفيف في المجال الجوي.. فينتقل إلى الموجودين بالأسفل إحساس مُلح بأنها قطعت آلاف الأميال في الجو، وأقلعت قبل فترة طويلة من بلد أخرى، وقد تبقى لفترة طويلة هناك في السماء تحلق على الارتفاع نفسه في طريقها إلى وجهتها.

كان الفندق الصغير في الوقت ذاته هو البار الوحيد الموجود في الشارع المؤدي إلى السهب. وكانت تديره الفتاة الشابة التي لعبت دور الملكة في أيام العيد. أمّا أمها، المالكة الفعلية للفندق، فظلت غائبة طوال الوقت. قال لي الراوي في هذا الشأن - إذا كان القارئ يحتاج إلى تفسير لغياب الأم - يمكنني القول إنها ربما تكون خرجت بحثًا عن عشيقها السابق لتفاجئه وتبحث عنه في منطقتها كما يفعل الشاعر هنا الآن وربما لن يتقاطع طريقيهما. تدير الفتاة الفندق بمفردها وتتدبر الأمر بصعوبة. بالتأكيد لم يكن العمل يسير على ما يرام قبل ذلك. فالكثير من الأشياء في الفندق كانت خربة، أو لا يمكن استخدامها منذ فترة طويلة، وكذلك كان ينقص الفندق الكثير من الأشياء؛ قد تكون اختفت، أو أنها لم تكن موجودة من قبل؛ فحوض غسيل الوجه الموجود في أحد الحجرات كان من دون صرف، وحوض غسيل الوجه في حجرة أخرى كان يصرف على الأرض مباشرة. والأسرة قصيرة للغاية (كأنها مخصصة لأقزام تلك الناحية، وعددهم غير قليل). هل أنشيء الفندق في الأساس لهذا الغرض؟ والحجرات كذلك كانت صغيرة للغاية، لدرجة أنك بدلًا من السير داخلها بحرية، تخطو خطوة واحدة على أقصى تقدير؛ خطوة واحدة من الباب إلى السرير، وخطوة مماثلة من الباب إلى النافذة؛ بين السرير والنافذة، وبين السرير وحوض غسيل الوجه، وبين حوض غسيل الوجه والنافذة، لا يمكنك أن تتحرك. أوليس هناك ضرورة لذلك؟

وبمرور الأيام، أصبح مكان الإقامة والنوم الضيق مناسبين له، ثم أصبحا محبين إليه؛ فحين ينام، كان ينام بعمق وهدوء ودون أحلام على غير المعتاد. وحين يجلس بالنهار، وخاصة في الصباح، كان يجلس في هدوء ومعه بعض الأشياء التي يستخدمها في تناول يده -لا يمكنه فعل شيء آخر في تلك الغرف - لدرجة أنه كان يعد الجلوس هناك نشاطًا ربما يؤدي إلى شيء مفيد.

عدم وجود مفاتيح للأبواب كان يمثل مشكلة، حتى باب الفندق بالأسفل كان مفتاحه مفقود، ولا يوجد كذلك مزلاج لإغلاق الباب من الداخل. كان الصيدلي يرغب في بعض الأحيان أن يغلق الباب من الداخل على الأقل، لكن هذا لم يكن

ممكّنًا ولا حتى في الحمامات. بالإضافة إلى ذلك، كان بعض زجاج النوافذ محطّمًا. عتبة المدخل مفتتة وجزء منها منهار. السقف غير مستو. والقرميد ملقى فوق بعضه هنا وهناك أو متزحزح من مكانه، ليس بفعل رياح الليل، بل بفعل العاصفة. والمزراب مسدود بأعشاب السهوب المتراكمة الملتصقة بشدة بالرمال التي جرفتها الرياح من هناك، لدرجة أن الندى الغزير في تلك المنطقة لا يتدفق عبر المزراب. والحطب التقليدي موجود دون ترتيب في الفناء وجزء منه في مطبخ الفندق بدلًا من تخزينه تحت النوافذ المطلّة على الشارع.

في حين وُجد بالفندق أشياء ثمينة؛ الجدران الحجرية ذات الجرانيت الأزرق اللامع، والحوائط الداخلية غير المستوية؛ المموجة والمبطنّة بخشب الزان من جميع الجوانب، والمكسوة بالقرميد حتى مستوى النظر، وبجانب كوب بلاستيكي ملعقة من الفضة مغطاة باللون الأسود، وذئب محنط، وموقد حديدي مرتفع في زاوية الفندق المظلمة، يوضع في داخله في الصيف الحطب، الذي يمكن رؤيته وراء باب الموقد الشفاف المقاوم للهب المصنوع من الـ«ميكا»، وضوء النار ينعكس من لوح الـ«ميكا» على العين الزجاجية للذئب، وطاولة كرة قدم - معظم اللاعبين دون رؤوس أو سيقان - وفي الدولاب الزجاجي الموجود بجانب الطاولة فستان زفاف عربي، وفي حمام الفندق، المكان الوحيد الكبير إلى جانب البار، مقبض الباب، قاعدة الحوض، حامل مناشف الحمام من الكريستال، والباب من الخشب المضغوط، والبانيو من الصاج مثل الذي يدخل في صناعة العبوات الصفيح، وفوق الحوامل الكريستالية لمناشف الحمام - مجموعة منها على شكل نجوم بارزة من الحائط - منشفة وحيدة صغيرة ومبللة.

في أثناء العيد، كان ثلاثتهم مشغولين بأشياء مختلفة. ذات مرة بعد منتصف الليل بفترة طويلة، أقتيدت مجموعة من الثيران من السهوب عبر الشارع؛ ثيران شابة لم تُنْهَك بعد في القتال، ولكن قرونها كبيرة. يمكن لمن يرغب في ذلك، أن يركض أمامها، على كل حال، لم يبقَ أحد جالس في مكانه. (أو ربما واحد فقط ظل جالسًا) ذات مرة، في اليوم الثامن والأخير من العيد الذي يُدعى «فربينا» خرج موكب الصمت والناس يحملون تماثيل القديسين تحت ستائر، يظهر تحت واحدة من تلك الستائر الصيادين المقيمين في الشوارع، وتحت الستارة الأخرى لاعبي الشطرنج المقيمين هنا، وتحت الستارة الثالثة أقدم الأقداس. امتد الموكب على شكل قوس كبير يصل حتى السهوب، سار بعيدًا حتى ميزنا صيحات الغربان، وطيور العقعق عن صيحات النسور والصقور، لدرجة أنه عند العودة إلى الشارع كانت ملابس العيد مغطاة بالغبار حتى فوق الركبتين وملتصق بها الأشواك.

في أحد أيام العيد، حدث كسوف الشمس وفي اللحظة الأولى للكسوف تقاطع قرص القمر مع قرص الشمس، وهو حدث بسيط وعابر يشبه اللدغة

ويبدو للكثيرين كتوهج له تأثير سلبي على شبكية العين. استمر الكسوف حتى بعد نهاية العيد.

ثم حان وقت مساعدة الفتاة (التي احتفظت في تلك الأثناء بشيء من مملكتها) في الفندق. تغيرت أركان كثيرة في الشارع المطل على السهوب. تلك الأركان التي كانت توجد فيها الطاولات في أثناء العيد، لتعود إلى وظائفها السابقة. وفي مكان المسرح الذي ظهرت عليه الحاشية، ظهر عمال الصرف الصحي، وفي مكان عازفي الموسيقى - كانوا يتحركون ذهابًا وعودة في الشارع - تم مواصلة أعمال الرصف، ومن الكنيسة المفتوحة التي طليت باللون الأبيض مجددًا، صدرت أصوات من راديو عاملي الطلاء بدلًا من نغمات آلة الأرغن. وحين يغادر العمال لتناول الطعام ويتركون أدواتهم دون استخدام، كان الوضع مغريًا، لأن تأخذ مجرفة وشاكوش وخرطوم ماء وعربة يد وتبدأ بهدم شيء ما.

وبطريقة مشابهة، بدأ ثلاثتهم أيضًا العمل. واحد من عمال رصف الشارع ألقى لهم من بعيد فرشاة سلك أمام أرجلهم في أثناء قيامه بقشط الشارع، وانحنى واحد من الثلاثة وبدأ في قشط جدران الفندق الصغير من الخارج. في بداية الأمر، بدا وكأنه يلعب أو يقوم بتجربة ما، لكنه بعد ذلك عمل دون توقف وبجدية، ثم انتقل إلى مكان آخر في الفندق واستمر هكذا لمدة أسبوع. قام واحد من الثلاثة بالتقاط ميزان ماء من مكان ما في الشارع وهكذا.

كان يوجد في الفندق ملابس العمل المعتادة في المنطقة - في فاترينة زجاجية هناك بجانب قباعات أسطوانية وقباعات الضباط - سلمت فتاة البار ثلاثتهم تلك الملابس. عمل أحدهم في رداء أزرق، وعمل الآخر في رداء أبيض. وبعد مرور بضعة أيام، كان من الصعب أن تميز بينهم وبين العمال المتمرسين في الشارع. فقد صار شعرهم لا يمكن تصفيفه. وخطواتهم تصدر صوتًا نتيجة الاحتكاك بالأرض، وسراويلهم مرفوعة إلى أعلى، يتحدثون بصوت مرتفع دون وجل، كما هو معتاد على سبيل المثال بين عمال الأسقف، علاوة على كونه أمرًا ضروريًا حين يضطر أحد العمال الذي يقف بأعلى المبنى للتفاهم مع العمال الواقفين بالأسفل.

وهكذا، كانوا يذهبون أيضًا بين الحين والآخر مثل المجموعات الأخرى من العمال إلى شرب الماء بالنافورة العامة الوحيدة الموجودة بالشارع المنحدر قليلًا. كانت عبارة عن ماسورة في جدار ينساب منها باستمرار قليل من ماء البئر. كانوا يستلقون هناك في فترة الظهيرة تحت الشجرة الوحيدة الموجودة بالشارع فوق رقعة من الحشائش، ويمددون أجسادهم بجوار عمال الطلاء وعمال رصف الشارع - لكنك لا تميز بينهم - دون أن يتفوه أحدهم بكلمة واحدة.

الوحيد الذي لم يندمج تمامًا مع الأمر وبدا أنه متنكر في زي عامل كان الشاعر، على الرغم من الجهد البدني الذي كان يقوم به مثل الآخرين تمامًا.

دون أن يكون مهملاً أو غير ماهر بطريقة ما، أو يتهرب من العمل - بل على العكس فقد كان يفعل على الفور ما يُكلف به دائماً - وكان عمله يتمتع بعفوية بسيطة باستمرار وحتى عند قيامه بمجهود كبير، لم يكن يأخذ استراحة مع الآخرين، بل كان يذهب إلى مكان ما ويأخذ جانباً، خارج الدائرة أو المثلث. وهكذا سرعان ما شعر العمال المحليون أنه شخص مختلف تمامًا عن كونه مصلح أبواب أو عامل طلاء النوافذ. إن ما شعروا به كان أكثر من مجرد شك. قالوا له:
- أنت لست ما تدّعيه.

كان مقنعًا فقط حين قام بدور الطباخ، في البداية كان يطبخ لابنته فقط، ثم بعد ذلك كمقدم لوجبات خفيفة للعمال الذين يستريحون بالخارج عند النافورة. كان الحديث يدور عنه وكيف بدا منهمكًا وهو يقطع اللحم ويضعه في الدقيق، أو كيف يقتلع الريش، وكان يشعر بالحرارة بينما الموقد بارد.

كما أظهر البطل الرياضي السابق، بطل العالم والفائز بالأولمبياد قدرات مذهلة في الأعمال الضرورية المختلفة بالفندق الصغير. بديهى أنه من فترة مجده وثرائه القصيرة كان على دراية بالفنادق والبنسيونات والبارات؛ كان يمتلك بعض تلك المنشآت، وفي تعاقب سريع للأحداث أصبح «مالك هارب»، لكن من كان يتخيل أن بطل العالم في السباقات يتقن الأعمال المنزلية، وترتيب الأشياء، والتنظيف، وتلميع طاولات الزبائن، وأن يكون مصدر سعادة للآخرين وللغرباء. نعم، فإلى جانب الأعمال الأكثر قسوة التي كان هو المخطط لها وموزع الأدوار من بين الثلاثة دون فخر، كان يتحمس كذلك للأعمال الخدمية كما يُطلق عليها. فقد كان خلال الفترة التي قضاها هناك في الفندق يرتب الفراش للآخرين، ويلمع لهم الأحذية، ويكوي كل ما يحتاج للكوي في الفندق، ويقوم بالتسوق، والخياطة، والرفقة، وكان يقوم بكل هذا بسرعة وفي مدة قصيرة. صحيح أنه لم يعد فائزًا أو رجل أعمال، إلا أنه كان يهتم بكل الأمور في الفندق وبمنتهى الحماس. كان وجهه يضيء حين يقدم لشخص آخر كأسًا على الطاولة. وكان بالإمكان تخيله في تلك الفترة وهو يقف على المنصة مرتديًا الميدالية الذهبية.

لأول مرة يتغير حال الرياضي السابق بهذه الطريقة. كيف حدث هذا؟ فقد كان الناس يخاطبونه لأول مرة باسمه الأول في اندهاش:

- «أفونسو!» «أفونسو»!

وكان يرد عليهم قائلاً:

- نعم، يجب أن أعمل. إن هذا العمل هو إجازتي في الوقت ذاته، ووقت فراغي. لم أحظ من قبل بهذا القدر من وقت الفراغ. لا بد أن أعمل.

إلا أن مع هذا التغيير بدا أنه أصيب بإحباط للحظات قصيرة في وسط هذا الاندفاع:

-لا، أنا ضائع. لا يوجد خلاص لي بعد الآن.

في تلك الأثناء، ظهر من باب الفندق عمال رصف الشارع وقد بدوا مشوهين بفعل اللهب والدخان:

-آه، لو أستطيع أن أقف على الأقل في مثل هذه النار!

إن العمل المشترك هو الذي جعل الراوي يبقى مع الاثنين الآخرين. وبمجرد أن انتهت الإصلاحات لم يعد يرى البطل الرياضي والشاعر كثيرًا. والسبب في هذا يرجع إلى أن الشاعر غادر الفندق في اتجاه المدينة، إلى وسط مدينة «سانتا فيه» (كالعادة سيرًا على الأقدام ويتبعه رفيقه). واختفت ابنته في تلك الأثناء، تردد أنها اتبعت الفرقة الموسيقية. نعم، حتى الآن كان بإمكانك أن تشم رائحة العيد في الشارع، على الرغم من انتهائه.

والصيدلي الذي يروي تلك القصة شاهد في صمت ابنه عازف الهارمونيك - إذا كان ابنه فعلاً - وهو يغادر المدينة.

قال الصيدلي:

- كل شيء على ما يرام بهذه الطريقة. لا بد أن ينفصل الأب والابن مرة واحدة وإلى الأبد. وهذه المرة كانت اللحظة المناسبة لذلك، ربما لم تكن سيئة تمامًا. على كل حال، صرت فجأة أنا الساكن الوحيد بالفندق الصغير الواقع على حافة السافانا هناك.

هنا، بدأ البحث عن تلك السيدة التي كانت بطلة رياضية. ألم يكن من المفترض أن يهرب منها؟ فالجروح التي سببتها له في أول ليلة عراق - عراق من طرف واحد - بيديها المجردتين لم تلتئم بعد. خاصة الجرح الموجود في جبهته في المكان الذي تمت إزالة الخراج الصغير منه قبل ذلك، وبدأ ينزف مجددًا دون سبب. في هذا المكان تحديدًا، تلقى ضربة من حيث لا يدري على أطراف الغابة القريبة من «مطار سالزبورج» حينئذ. نعم، هذا ما يتذكره.

لكنه يرغب ويجب أن يجد تلك السيدة، حتى لو كان المقابل أن يتلقى ضربة ثالثة على رأسه. لقد كانت المرة الأولى التي يغضب فيها لهذه الدرجة، وربما بدرجة أقل بسبب الموضوع، وبدرجة أكبر بسبب تعقبها له. قطعة من ظفر إصبع السيدة كان قد انكسر في أثناء اعتدائها عليه وأخذه الصيدلي في صباح اليوم التالي من على أرض المنزل الجبلي، وصار بالنسبة له دليلًا أكثر من كونه نذير شؤم. نظر الصيدلي إلى الدليل وشعر بقوة أنها في مكان ما قريب.

هو فقط لم يعد بإمكانه رؤيتها. المرة الوحيدة التي أصابه فيها شيء في رأسه بقوة كانت عند حافة السهوب، وكانت تفاحة، لكن أين الشجرة؟ - لا شجرة تفاح هناك - لكن أين الشخص الذي ألقى التفاحة؟ لا يوجد أحد على مدى الرؤية، ثم رأى على مسافة ما غرابًا في السماء، وقعت من منقاره التفاحة.

لم ينتبه الآخرون لبعثه عن السيدة، ولم يلفت انتباه أي شخص. فقد كان يرتدي ملابس العمل الزرقاء العملية والجميلة، والتي لم تلفت له الانتباه في أي مكان بمدينة السهوب الصغيرة. وكذلك كانت حركاته، وتعابير وجهه، ونظراته كمنظرات شخص يبحث عن مكان عمل وينتقل من مكان إلى آخر، لا يلتفت إلى أشياء ثانوية ولا يتمهل. لكنه أيضًا في داخله لم يكن يتبع مسعاه باستمرار:

- لأنها بدت لي قوية فقد استطاعت أن تختفي عن نظري من خطوة إلى أخرى. عايشته البحث عن السيدة باهتمام وإلحاح لدرجة أن وعيي لم يعد باستطاعته أن يدرك بحثي عنها مؤقتًا، ونسيت حرفيًا في المسافات البعيدة بحثي عنها وانشغل بالي بشيء مختلف تمامًا له الألق نفسه مثل الهدف الذي أتعبه. وهذا يشبه حين تشعر بالامتنان أحيانًا لأنك نسيت أن تقدم الشكر لأحد.

تحرك الصيدلي أيامًا وأيامًا عبر مدينة «سانتا فيه»، غالبًا عبر الجزء السفلي من المدينة حيث كان الطقس في منطقة السافانا ساخنًا.

صعد بضع مرات الجزء العلوي من المدينة إلى الحي الصخري القديم، الذي ما زال يشكل مركز المدينة. كان يفعل هذا عادة في المساء حين تخلوا الأماكن هناك بالأعلى من الناس تدريجيًا على عكس الأماكن بالأسفل، وتصبح رياح الليل ملموسة ومصحوبة بقوة مختلفة عن رياح الليل في الجزء السفلي من المدينة. يقف في أعلى مكان، وأكثر الأماكن خلوًا من الناس على حافة المنحدر الصخري ليرك الرياح تنعش وجهه وجذور شعره وذاكرته، تلك الرياح التي تهب من الظلام. يقول الصيدلي:

- أنا إنسان عاشق لرياح الليل. أين عشاق رياح الليل؟

بدلًا من أن تحرك رياح الليل أشرعة البلعوم أو أشرعة اللسان لأتمكن من الكلام، حركت أشرعة الصدغ.

في أثناء هبوب رياح الليل، فكّر الصيدلي في أن إصابته بالخرس كانت مناسبة تمامًا له. من الجيد أنه لم يعد قادرًا على الكلام. وقد لا يضطر لأن يفتح فمه مجددًا. يا لها من حرية! بل أكثر من ذلك؛ نموذج يقتدى به! قد يؤسس حزب أو دين؛ حزب الخرّس، دين الخرّس؟ لا، ليبقى وحيدًا بما لديه. صامت، وحر، وأخيرًا.. وحيد، كما ينبغي أن يكون.

في لحظة أخرى من لحظات رياح الليل، ضربه شيء ما باستمرار على رأسه أو على الأقل هذا هو ما شعر به. في الحقيقة اصطدم برأسه فقط فراء فأر

بصقته بومة كانت قد ابتلعت غنيمتها للتو بصعوبة في مكان ما فوق جدار.

كان يبقى طوال النهار بالأسفل عند سفح المنحدر الصخري. لكن كلمة سفح الجبل لا تعني أن المدينة تمتد من هناك بشكل مستو؛ على جانبي النهرين اللذين يصبان في بعضهما ترتفع التضاريس مجددًا، لكنها أكثر استواءً، ثم تنخفض من جديد وهكذا حتى تصل إلى السهوب الصخرية.

بسبب الجدران الصخرية الكثيرة، والشقوق الصخرية، والوديان الصخرية (للأنهار والجداول)، كان يوجد في المدينة بأكملها صدى صوت عجيب. لم يكن يؤدي فقط إلى زيادة الضوضاء، بل كان يؤدي باستمرار إلى ارتباك في الاتجاهات، وخاصة بالأعلى والأسفل. وكذلك كان من الصعب التمييز بين القرب والبعد. خاصة في الصباح حين يكون عدد الناس قليلاً في كل مكان. يبدو أن النوم لفترات طويلة كان أمرًا معتادًا في تلك المنطقة، ويتحدث شخصان فجأة بصوت مرتفع أسفل نافذة الفندق، وحين ينظر من النافذة لا يجد أحدًا بالأسفل، لا يجد أحدًا بالشارع، ليرى هناك بعيدًا في السهوب شخصان يتحركان وكل كلمة ينطقان بها تدوي في حجرته الصغيرة بوضوح.

أو في الليل العميق الهادئ لا تسمع سوى أصوات البوم الرتيبة من أسفل؟ أم من أعلى؟ من أحد ثنايا النهر الضيقة حيث الحدائق الوحيدة الكبيرة في منطقة السافانا بمحاذاة مجرى النهر.

وصوت أحد كلاب الحراسة وهو يلهث يرتد من الصخور ليرد عليه الكلب الآن بنباح، ليرد عليه الكلب التالي بالنباح مع صدى الصوت، يتبع ذلك صدى صوت نباح الكلب التالي الذي يأتي مضاعفًا بسبب ضيق الوادي، ليرد عليهما الكلب الثالث الموجود في أعلى الوادي مع صدى صوته المضاعف هناك عند منحنى النهر، ولهذا تزداد قوة صدى صوت نباحه وتتضاعف في الجزء السفلي والعلوي من المدينة ليدوي في النهاية - لا إن هذا لا نهاية له - كأنه صوت نباح جيش من الكلاب في هجومه على الأعداء، على الرغم من أنها ثلاثة كلاب فقط.

كنا ما زلنا في الصيف، لكن، على الرغم من هذا، كان بإمكانك أن تشك في الأمر. وهذا يرجع بدرجة أقل إلى أجهزة قياس الحرارة الإلكترونية الكثيرة الموجودة في المدينة التي تعرض لكل شخص درجة حرارة مختلفة، وعادة ما تكون الفروق بينها كالفرق بين الصيف والشتاء. وكذلك كان تساقط أوراق الشجر أحيانًا في بداية شهر يوليو أمرًا مألوفًا.

كان الطقس هنا يتأرجح بطريقة غريبة مع فصول السنة، في هذه اللحظة ينقلب الطقس، وفي اللحظة التالية يعود كما كان. في أحد الأيام، سبح الصيدلي في أحد النهرين الذي كان مستوى المياه فيه مرتفعًا عن الآخر. سمع صوت هدير الماء المندفِع على جانبي ضفتي النهر الذي يشبه صوت صراخير الصيف. سبح الصيدلي عكس التيار وقابله سيل لا ينتهي من أوراق الشجر الأصفر

والأحمر والأسود، سلسلة متصلة على شكل إكليل يطفو فوق الماء مما يزيد الإحساس بالخريف، في اللحظة التالية يسمع صوت طائر الوقواق كأننا في نهاية فصل الربيع.

وشجرة التوت ما زالت تحمل كل ثمارها التي لم تنضج بعد، في حين نظيرتها في «تاكسهام» سقط عنها كل التوت منذ فترة حتى أن البقع الحمراء التي تركتها على الأرض قد شحبت لونها. تكرر الأمر نفسه مع شجرة «البيلسان» ذات الأزهار البيضاء والصفراء، وإلى جانبها امتدت حقول عباد الشمس السوداء، التي تذكرك بمدافن الحرب العالمية. يمر هواء منتصف الصيف فوق الحقول ويداعبها.

على الرغم من ذلك، لم يضل الطريق هناك، وإن حدث هذا، كان يتصرف بهدوء ويقول: «ربما أتعرف الآن على شيء جديد».

الكثير من سكان الناحية كانوا يضلون طريقهم أكثر منه. ودائمًا ما كانوا يسألونه عن الطريق وهو الغريب في هذه المنطقة، وغالبًا ما كان يستطيع مساعدتهم بإشارة صامته.

الحقيقة أن الذين سألوهم كانوا أحيانًا سائحين، لكن من المنطقة نفسها، وكانت مدينة الرياح الليلية تمثل لهم العاصمة، أشخاص من القرى، لم يوجد سائحون آخرون. هؤلاء السائحون أو المتنزهون، كان منظرهم مبهجًا بسبب مظهرهم غير اللافت للانتباه، وخاصة خجلهم على أرض أجنبية، وتصرفاتهم العفوية البسيطة، حين كان يمكنهم أن يسيروا بخطوات متباعدة تشبه خطوات الرقصات الشعبية القديمة (خطوة واحدة في كل مرة).

ذات مرة، رأى موكب عرس يتكون من سيارات مزينة تتحرك بسرعة عالية عبر الطريق الرئيس، وترتفع أصوات أبواقها، ويجلس في سيارة العروسين رجل وامرأة كبار في السن، يظهر بوضوح أنهما من قرية ما.

لكن عادة ما كان ينظر إلى الأرض وهو في الطريق بحثًا عن السيدة أو يفكر في شيء آخر. وهكذا وجد حين خرج من المدينة وسار وسط السهوب، بعض الفطر من أنواع مختلفة كان على معرفة بها حتى وإن كانت أنواع خاصة بالمنطقة وتختلف عن الأشكال المعروفة.

كان يأكل الفطر بعد ذلك، أحيانًا في الشارع، في بار - دائمًا البار نفسه - لأنه لم يحتاج للكلام هناك؛ فقط إشارة أو إشارتين للتفاهم. اللافت للانتباه كيف أن نبات تلك المنطقة كان غريبًا ومخيفًا بالنسبة للسكان المحليين. كانوا ينظرون إلى الفطر الأكثر انتشارًا والموجود في كل مكان - حتى خلف المنازل - والأطعم مذاقًا مثلما ينظرون لشخص يعرض حياتهم للخطر، ويتقهقرون إلى الخلف كأن

النظر وحده من شأنه أن يقضي عليهم. وبدا أن بعضهم، بل الكثير منهم يشعرون أن الفطر يجذبهم مثل معجزة أكثر منه فعل من عمل الشيطان.

لكن أيضًا الكثير من النباتات والثمار الأخرى بالمنطقة كانت بالنسبة للسكان، وليس فقط للمقيمين داخل المدينة غير معروفة أو محرمة. حين ذهب ذات يوم إلى منطقة سكنية تقع على أطراف المدينة - تشبه المنطقة السكنية في شارع الفندق الصغير وذات منازل صغيرة فوق منحدرات السهوب، لكنها تقع فقط عند مخرج آخر للمدينة - قطف في أثناء سيره ثمرة تين من شجرة توجد بجانب باب، فجرت نحوه امرأة عجوز وهي تصرخ، لكن ليس لأنه سرق ثمرة تين، لكن بسبب نوع التين السام، وقالت له: «لا تأكل!» هي نفسها لم تذق ثمار شجرة التين تلك طوال حياتها وأرادت الآن أن تحميه من أن يموت بسبب شجرة التين الموجودة عند باب منزلها.

ثم أكل من الثمار التي كان مذاقها لذيذًا للغاية لدرجة أنه ود لو يأكل الشجرة كلها، ظلت المرأة تنظر له بقلق. أكل ثمرتين فقط ومن أصغر الثمار حجمًا. عدم معرفة المرأة العجوز بما يحدث أمام باب منزلها والخوف منه أزعج الصيدلي طوال اليوم.

التقى الصيدلي خلال بحثه عن المرأة برفيقه في الرحلة بضع مرات على سبيل الصدفة. وعلى الرغم من أنهم انفصلوا عن بعضهم بشكل مؤقت، تصرف الشاعر والبطل الرياضي كأنهما لا يعرفان الصيدلي، أو أنهما لم يستطيعا أن يتعرفا عليه مجددًا بالخارج في الطريق بعيدًا عن السيارة والفندق الصغير، كما اعتاد هو على ذلك في مدينة «تاكسهام».

وعلاوة على ذلك، تجاهلاه لأنهما بديا منشغلان بشيء مختلف تمامًا. كانا يبحثان عن شيء لكنهما كانا أكثر وضوحًا منه. عن أي شيء كانا يبحثان؟ عراق؟ أموال؟ جمهور؟ مساعد يكون أكثر نشاطًا مما كان هو عليه، لا ينقذهما لأمسية واحدة فقط، بل إلى الأبد؟ لا يبحثان عن منقذ واحد، بل شعب من المنقذين. أم أنهما كانا يبحثان عن الشخص الذي قضى عليهما في النهاية، منفذ الأحكام؟ وفي كل مرة كانا يبدوان مهلهلين، على الرغم من البدلتين الأنيقتين اللتين ارتداهما بدلًا من زي العمل. كانا بدون أسنان تقريبًا وهذا حدث خلال بضعة أيام فقط. أم أنها كانت أسنان بديلة وفقداها الآن أو ابتلعها؟

رأساهما كانتا تبدوان مرة حمراوين ومرة أخرى شاحبتين. نعلا حذائيهما كانا يصدران صوتًا نتيجة احتكاكهما بالأرض. كانت على ذقنيهما آثار تشبه الحلزون. الشيء الوحيد الذي ظل على حاله كما هو كانت أطراف أصابع يديهما المعتنى بها بحرص (مما أضفى عليهما صورة القتلة المنحرفين).

وهكذا تجولا دون توقف نهارًا وليلاً عبر الجزء السفلي والجزء العلوي من المدينة، وأغلقا الطريق أمام المارة وسخرا منهم بسبب مظهرهم، أو طريقتهن

في المشي، أو أصواتهم، لكن كل هذا حدث كما في اللعبة وكان الكلام مقفى وعلى شكل قصيدة، وأحيانًا أغنية بحيث يظلا في أمان على الأقل ويحصلان بين الحين والآخر على أموال مقابل هذه العروض.

شاهدتهما ذات مرة في الميدان الرئيس بالجزء العلوي من المدينة في أكثر أيام العام حرارة، وهما يبيعان قوالب الثلج ويقولان: «ليس مجمدًا صناعيًا، لم يُسرق من الشاحنة، بل صُنِع من الصخور في العصر الجليدي، الاختيار الأول والمفضل للقيصر قسطنطين». مرة أخرى، قابلهما في الطريق فوق الجسر المطل على النهر ولم يعرفاه مجددًا، وطلبا منه أن يلتقط صورة لهما (وهو ما فعله)، وعلى وجهيهما رسومات بألوان متوهجة، ويضعان ريش الغربان الأسود في شعرهما.

مر الصيدلي على كل الصيدليات الموجودة في المدينة، كان هناك الكثير من الصيدليات وهو أمر غير معتاد على منطقة مثل تلك، تقريبًا عشرين صيدلية، هو لم يحتج إلى شيء، فهو لم يكن مريضًا، أم أن هناك دواء لفقدان القدرة على النطق؟

لم يرَ هناك صيدليًا كبيرًا في السن، ولم يرَ صيدليات قديمة. بدا كل الصيادلة هناك بصحة جيدة، وكانت وجوههم وأيديهم ذات بشرة خشنة؛ كأنهم كانوا يتسلقون الجبال في أوقات فراغهم، أو يتنزهون في المنطقة. على كل حال، كانوا يقضون وقتًا أكثر في الخلاء، أكثر مما يقضونه هنا أمام مستحضرات التجميل في الصف الأول ورفوف الأدوية في الصف الثاني.

الصيدلي العجوز الوحيد رآه في الجزء العلوي من المدينة، في الصيدلية الوحيدة الموجودة هناك، وكانت صيدلية جديدة أو تم تجديدها. رأى كيف أطل بوجهه في أثناء الخدمة الليلية عبر الفتحة الموجودة بجانب باب الصيدلية المغلق، دون أن يوجد زبون واحد في الشارع بسبب رياح الليل، ربما لأنه أراد أن يشم الهواء. وراه مرة أخرى في وسط النهار كشبح واقف أمام النافذة الخلفية الكبيرة التي تؤدي إلى هوة صخرية، وبالتالي كانت نافذة صخرية برزت من خلالها ملامح الرجل العجوز وهو يقف بمفرده في الصيدلية دون موظفين. كانت السهوب خالية من الناس حتى أعماقها، وتكتسي باللون الأصفر لون الحشائش والرمال والصخر. والآن كان لونها في ضوء شمس منتصف النهار أصفر شاحب مائل إلى الأبيض. وقف الصيدلي بالخارج في الشارع وشاهد نسخة منه في المستقبل تقف هناك.

الشخص الوحيد الذي كان الصيدلي على اتصال به الآن هو صاحب بار خفي يقع في الجزء السفلي من المدينة. (لكن ما المقصود بكلمة «خفي»؟ واحد من كل بارين كان يبدو خفيًا بسبب كثرة عدد البارات، وكان يطلق عليه «مخبأ» أو «ركن».) كان الساقى رجلًا عجوزًا أيضًا بحيث كان كل شيء فيه أسود وخشنة

بدلاً من أن يكون مجعدًا وأبيض. كان واضحًا - من دون أن يتفوه بكلمة - أنه أرمل منذ فترة طويلة، وأن أبنائه رحلوا قبل فترة طويلة بلا رجعة. كان هذا آخر فصل له يقف فيه خلف البار وآخر عام للبار. وقد يفارق الرجل الحياة العام القادم.

- كلما دخلت البار، كان صاحب البار يقف في وسط القاعة المكسوة بالقرميد بدلاً من أن يقف خلف البار. عليك النزول بضع درجات لتصل إلى القاعة ذات الضوء النيون الضعيف. وحين أدرك أنني زبون، حتى قامته وتسلسل عبر فتحة في البار إلى المنطقة التي يقف فيها. لم يتفوه بكلمة، مثلي تمامًا. كان يقدم مشروبًا واحدًا فقط معبأ في الزجاجات على الرفوف من أعلى إلى أسفل. الشيء الوحيد المختلف كانت الأطباق التي يقدمها للنقنة بجانب المشروب.

لم تكن بحاجة لأن تسأله عن تلك الأطباق التي تشمل الزيتون والفسق، والحبار المقلي، وبيض طائر الحجل، وجراد البحر، والفطر، الذي أحضرته ويقوم هو بإعداده. فهو يقدم كل ما يمكنك تخيله. وهكذا وقفنا وطاولة البار وسطنا، نحن الاثنين فقط، وعادة ما تتبادل النظر إلى بعض. يستغل صاحب البار وجودي ليأكل ويشرب مثلي، يأكل الأكل نفسه وبالإيقاع ذاته. برز الشعر متصلبًا من جمجمته وأذنيه وفتحتي أنفه. كان بلاط البار من الرخام الأبيض السميك، وعليه سلطانية مسطحة فيها ماء باستمرار؛ ماء نظيف دائمًا دون بالوعة. في هذا الحوض كان يغسل الكؤوس الزجاجية بعد استخدامها مباشرة، كل كأس على حدة، وبعد استهلاك الماء الموجود في الحوض، كان يستخدم ماءً جاريًا. كان البار أكثر هدوءًا حين ينتهي من غسيل الكؤوس الصغيرة الرقيقة، ويرصهم على الرخامة ويملا الحوض من جديد بالماء ويضع كل شيء في مكانه، وتتوقف كلانا عن الأكل والشرب وننظر إلى الكؤوس القديمة المرصوفة، وإلى الماء القليل النقي في الحوض، تلك البركة المستديرة ذات أرض من الرخام الفاتح، مثلما قد ينظر في الوقت نفسه زائر في حديقة معبد في الشرق الأقصى، وراهب إلى كتلة صخرية في وسط حوض رمال خال يشكل على سبيل المثال البحر الياباني.

ذات صباح، وصل الصيدلي إلى منطقة سكنية تقع على حافة مدينة تمتد في وديان قصيرة مسدودة وعلى يمينها ويسارها تلال صخرية. كانت البيوت صغيرة تشبه تمامًا الأكواخ المبنية من الطوب، وتوجد بينها وخلفها جدران من الصخور، وكان أصغر تلك الجدران أعلى من جدران البيوت.

طريق واحد فقط من الطرق المؤدية إلى المنطقة السكنية كان ممهدًا، أما باقي الطرق فكانت شديدة الانحدار. وقفت بضع سيارات عند المنحدرات مختلفة المستوى، هنا وهناك بين البيوت الصغيرة ويمكن رؤيتها بوضوح، ليست سيارات كثيرة، كانت تبدو كأن واحدة تقف فوق الأخرى، ويتوجون منحدر

السهوب بسيارة مرتفعة تقترب من ارتفاع بيت، تقف على الجانب الآخر من حافة المدينة على نتوء صخري لتبدو كسيارة القائد أو الزعيم.

حين جرى الصيدلي الآن لبضع خطوات فقط، على عكس طبيعته، أدرك ما فعله. كان أمام الأكوخ السفلية مقاعد خشبية موجهة نحو شروق الشمس، وحين كانت تلك المقاعد شاغرة مرة واحدة بشكل استثنائي، أشارت عدادات الكهرباء المثبتة على الأسوار الخارجية داخل صندوق زجاجي إلى وجود سكان بالمنزل، وتحديدًا هؤلاء الذين لا يسكنون فقط في تلك المنازل، بل ويعملون أيضًا. لفات قرص العداد هناك كانت سريعة، وبعضها يدور بسرعة البرق.

وكلما صعد الصيدلي إلى أعلى في اتجاه المنطقة السكنية، دارت الأقراص ببطء. في البداية، كان عادة ما يرى بريق معدن المؤشر الذي يدور حول نفسه، أما الآن فرأى أيضًا الأجزاء المطلية في المؤشر. بعض العدادات في الصناديق الزجاجية المرتفعة كانت لا تتحرك. هذا السكون كان يزداد باستمرار مع صعوده التل. كذلك كانت أبواب المحال الملحقة بأغلب تلك المنازل مغلقة، والمداخن لا يتصاعد منها الدخان.

هدوء العدادات المعدنية في الصباح يعد أمرًا غريبًا. في حين كان يوجد هنا بالأعلى بين الصخور الكثيرة مصابيح في أعمدة لامعة مرتفعة تحيط بالمنازل، وأسلاك كهربائية سميكة مربوطة بضع مرات ومعلقة بشكل عشوائي، لا بد أنها تمد المباني الفارغة بالكهرباء. وفي الوقت ذاته تبدو أغلب المنازل، إذا كانت مهجورة ليوم واحد أو لمدة أطول، غير مهملة على الإطلاق. أحد المنازل الواقع بالأعلى عند نهاية المنطقة السكنية معروض للبيع، وجاهز للانتقال والسكن على الفور. وبجانب المنزل وعبر خط السقف المستوي رأيت أطفالاً يصعدون في طابور في أثناء اللعب سهوب التل الخالية تمامًا إلى أعلى وفي الخلفية السماء. وشعرهم ذو أطراف صفراء فاتحة اللون مثل حشائش السافانا العالية على قمة التل.

«إذا كان المنزل يطل على السهوب، لكنت اشتريته في اليوم نفسه. لكن كل النوافذ كانت تطل على المدينة الواقعة على الجرف.»

وبعد منحني على الطريق وجد الصيدلي أول الأنقاض. هنا لم يجد فتحات لعدادات الكهرباء ولا أبواب وأسقف. نمت أشجار صغيرة في الفواصل المفتتة بين المباني، شجرتين، وعند جذع الشجر في الحطام رأى مراتب وأواني طبخ من دون قعر. لكن ما زال هناك قطعة من حديقة خسروات تزهر وتنتج ثمارًا أو حظيرة دجاج.

رأى بعد ذلك مباشرة آخر شيء في المنطقة السكنية؛ بناء لا يُستخدم من أجل الحيوانات المنزلية وليس من أجل زراعة النباتات، وليس مخزن لأدوات

الحديقة. كان يشبه الكوخ، كوخ كبير، فوق نتوء مائل. على الرغم من كبر حجم الكوخ، فقد أعطى انطباعًا بأنه من دون مساحة داخلية، مجرد هيكل كوخ، لا مكان داخله للأدوات ولا للماشية ولا حتى لإنسان. رأى بابًا من الخشب مثل كل شيء في الكوخ، خشب تم تجميعه من أماكن مختلفة، بل كان للكوخ عدة أبواب. لكن تلك الأبواب كانت تتكئ على بعضها الواحد تلو الآخر، وحين تزيح أو ترفع بابًا بعيدًا - كانت هذه الطريقة الوحيدة لفتح الكوخ - تجد الباب التالي مباشرة حتى تنتهي من إزاحة الأبواب وحينها تجد نفسك من جديد بالخارج في الخلاء بدلًا من أن تكون داخل الكوخ.

وكذلك بدت الجدران حتى الجدار الخلفي كأكوام من الخشب المقدسة المرصوفة خلف بعضها، على سبيل المثال من أجزاء المنازل المنهارة، وكما مادة خام لعمل قضبان خشبية لإغلاق النوافذ المهجورة، إلا أنها لا تُستعمل كمنافذ لدخول الضوء والهواء، بل وُضعت بشكل مائل أو مسطح، وكانت مخزنة مع دعائم وألواح خشبية، كل تلك الأدوات داخل الكوخ لدرجة أن داخله لم يتسع سوى لعش فأر.

هذا المبنى في السهوب الصخرية غير مفهوم. ما هذا المبنى؟ ما المفترض أن يكون؟ كان يشبه المتراس. لكن هذا المتراس كان له شكل، هو الشيء الوحيد ذو شكل مميز في كومة الألواح الخشبية المتراكمة، كان يوجد بالأعلى درابزين، حاجز حديدي أو شرفة. متراس مع نقطة مراقبة؟ لا شيء سوى ذلك، لا أنبوب للدخان، لا مشمع للأمطار، ولا سقف.

ذلك المبنى يقع الآن على بعد بضعة خطوات على الجانب الآخر من آخر مصابيح المنطقة السكنية وخطوط أسلاك الكهرباء. ويؤدي الطريق الممهّد إلى هناك، وبالقرب من المتراس المزعوم تركن السيارة التي يصل ارتفاعها إلى ارتفاع المنازل، وبالقرب منها حافلة وسيارة جيب «سانتانا» أكبر من السيارة التي تخطاها في أثناء رحلته إلى هنا. كانت مصابيح السيارة الأمامية مغطاة بقضبان لحمايتها من حجارة السهوب.

مر الصيدلي بالسيارة الفارغة وبالحواف الخشبية، لم يرَ أي سلم في أي مكان يؤدي إلى الدرابزين بالأعلى.

حكى الصيدلي قائلاً:

- قبل ذلك رجعت بضعة خطوات إلى الخلف. الرجوع إلى الخلف يجعل العالم يتحرك مثل التقدم إلى الأمام بعض الأحيان في أثناء الطفولة».

يظهر الآن من الدرابزين أن هناك قاعة أو مكان للمبيت يمكن الوصول إليه عن طريق سلم داخلي بالأسفل في الكوخ. لم ينزل إلى أسفل، بل بقي بالأعلى واستلقى على بطنه ونظر طويلاً إلى أسفل. رأى سريراً؛ مكانًا للنوم بالأسفل

محشورًا بين الخشب المتشابك. وغطاء وُضع جانبًا هذا الصباح، لا شيء آخر، لا شيء سوى تناقض شديد لرونق البطلة المنتصرة، وفي تلك اللحظة، بدا له الكوخ فارغًا.

سألته:

- هل كانت تحزن على زوجها بهذه الطريقة؟ أم أنها كانت تريد التكفير عن ذنب ما؟

لم أحصل على إجابة من الراوي. أم أنني حصلت على هذه الإجابة:

- في أثناء الوقت الذي قضيته على الطريق غالبًا ما كنت وحيدًا، لم أكن أستطيع أن أقول هذا من قبل عن نفسي. ذات مرة أخذت معي قطعة خبز من بار وحملتها معي لفترة من الوقت، لأنها كانت تنبعث منها رائحة عطر امرأة قامت بتقطيعه إلى شرائح. أو وقفت في الشارع بقرب مجموعة من السكرانيين، ربما لأحتك بهم قليلاً في أثناء مروري. وأبواب المحلات كنت أدفعها أو أجذبها من الموضع نفسه الذي استخدمه الشخص الغريب الذي سبقني لفعل ذلك. وفي حمام الفندق الصغير لم أكن أجف جسدي بالمنشفة النظيفة، بل بالمنشفة الملقاة في ركن، والتي استخدمها الشخص الذي سبقني. وفي المحلات العامة كنت أخذ دائماً مكعبات السكر المفتوحة والمنزوع عنها الغلاف وأضعها على القهوة. لكن ماذا عن تلك الوحدة هناك في الكوخ! (لا، لقد كان الكوخ مسكونًا) البطلة الرياضية الفائزة! أعرف من خلال قراءتي لملاحم العصور الوسطى أن مثل تلك الألقاب والأسماء تقول العكس عن صاحبها. «الفائزة» هي بالتالي «خاسرة» في الأصل. إن سر الملاحم يكمن بالطبع في أن تنتهي المغامرة بشكل جيد، وهكذا تصبح «الخاسرة» «فائزة» في النهاية، مثل تلك المرأة. لقد أطلق عليها هذا اللقب لأنها استطاعت أن تنتصر في الواقع أو كان يُفترض بها أن تنتصر في الواقع. إذًا، الانتصار يمثل بالنسبة للخاسرة الحالية مصيرًا! ربما تمتد المغامرة بين الهزيمة والانتصار.

قفز الصيدلي من الكوخ. هبت الرياح. هناك شيء ما يجب القيام به. يجب ألا يشتت تفكيره من الآن، يجب أن يركز كل لحظة أو كما يقول هو بوصفه خبيرًا في الروائح: «يجب أن يستخدم أنفه الطويل». لماذا عليه أن يركز؟ لكي يكتشف شيئًا أو يعيد اكتشاف شيء.

في اليوم نفسه، قابل الصيدلي لآخر مرة في قصته الشاعر والبطل الرياضي. كانت مدينة «سانتا فيه» مدينة صاخبة على الأقل في الجزء السفلي منها، والذي كان أكبر من الجزء العلوي. لكنه لم يسمع من قبل مثل تلك الصرخة التي سمعها الآن. الأطفال، ومشجعو كرة القدم، وأصحاب الشاحنات، وبائعو اليانصيب، والمنادون بشكل عام يصرخون بشكل مختلف. كان الوقت يقترب من منتصف النهار.

ذهب الصيدلي إلى منطقة نائية، ومر في طريقه على حلبة مصارعة الثيران المهجورة التي قد تستخدم العام القادم من جديد، لأن مصارعة الثيران السنوية الوحيدة هنا أقيمت في بداية الصيف، وملصقات العيد الذي أقيم في شهر يونيو تبدو قديمة وكأنها ترجع إلى عشر سنوات. جاءت الصرخة من الخارج، من زاوية بالمنطقة المحرمة بين الطريق وحلبة المصارعة، في الجانب المهمل قليلاً من المدرج الذي تتعامد عليه أشعة الشمس ويتجنبه الناس في الصيف بقدر الإمكان. دائماً ما كان يعلن هناك في آخر الخريف عن سباق دراجات نارية وحفلات موسيقية.

في بقعة الأرض الممتلئة بقصاصات ورق وبلاستيك ملتصقة بنباتات شوكية متفرقة، وقف رفيقيه في الرحلة ومعهما رجل شاب. الرجل الشاب هو الذي صرخ. ووقف على مسافة من العديد من الشباب الآخرين. دائماً ما كان يظهر مثل هؤلاء الشباب في الأسابيع الأخيرة وبشتبكون مع بعضهم في الخلاء. يبدو هذا الاشتباك جاداً للحظة، وفي غمضة عين يتحول إلى نزاع وهمي، كان أمراً معتاداً في تلك المنطقة. أما ما يحدث هنا الآن، كان جاداً، ويتضح هذا من الطريقة التي تحرك بها الشاب أمام الشاعر والبطل الرياضي ويمكن ملاحظة هذا في صوت صراخه الموجه نحوهما. يبدو أنه لم يصرخ في حياته بهذه الطريقة من قبل. حتى الآن، كانت تصدر عنه همهمة غير مفهومة في أثناء مروره في الشارع لعشرات السنين، وأحياناً يتحدث بصوت منخفض، لكن الآن حانت اللحظة وأطلق صيحات الحرب قائلاً:

- الموت! سأقتلكما الآن.

أخيراً، أصبح الشاعر والبطل الرياضي معروفين، حتى ولو بطريقة مختلفة عن تلك التي كانا يتوقعانها.

أشخاص مثل هذا الشاب كانوا يظهرون هنا في الفترة الأخيرة بشكل متكرر. وعلى الرغم من أن كل واحد منهم كان يتسكع بمفرده، أو على أقصى تقدير كل اثنين، فإنهم شكلوا في تلك الأثناء في الطرق ذات الأشجار على الجانبين وكذلك في السهوب حشداً كبيراً بحيث يبدو باقي سكان المنطقة أقلية بالنسبة لهم بشكل ملحوظ.

بالخارج، في الخلاء، احتل أولئك الشباب المقدمة. فقد كانوا يحتشدون في الأماكن المركزية، والجسور، وفي مداخل المباني العامة. كانوا يتفحصون المارة ولا يردون عليهم التحية، ولا على أبسط الأسئلة. وكانوا يلتزمون الصمت فيما بينهم أو يتوقفون عن الحديث حين يقترب منهم شخص غريب. وهكذا، بدأ أنهم يرتبطون ببعض بطريقة ما. بدأ كأنهم يرفضون اللغة المعتادة ويتصرفون كأنهم لا يفهمونها. يمتلكون لغة خاصة بهم ويريدون استخدامها للتواصل فيما بينهم فقط. أن يتحدثوا اللغة فيما بينهم فقط يعني أن لا أحد ولا شيء ينبغي أن

يسيطر سواهم ولغتهم، ويرتبط بهذا أيضًا مطالبتهم بملكية الأرض والسيادة التي قد ينتزعونها لأنفسهم قريبًا دون تخطيط مسبق. لقد كانت المنطقة خاصة بهم، ألم يشكّلوا كما هو واضح الأغلبية هناك منذ فترة طويلة؟ ونظرتهم إلى السماء بدت كأنها أمر متفق عليه. ولا يطرأ أي تغير بسيط على ملامح وجوههم أبدًا حتى في ظل ما يستجد من أحداث يومية، لا يتسمون أبدًا، لا للزميل الواقف بجوارهم أو خلفهم، ولا لأنفسهم، ولا في داخلهم.

بدوا مرتبطين فقط كعدد. لكن كل واحد منهم كان مستعدًا للسقوط الفوري المشترك العنيف الذي لم يشهدوه حتى الآن. كانوا يظهرون في الشوارع في هيئة أشخاص مستعدين للشجار، لكنهم لم يكونوا يعترضوا طريق الآخرين الذين بدوا دائمًا أقل منهم. فقط طريقتهم في السير هي التي كانت تستفز الآخرين. فقد كانوا يتسكعون بلا هدف وأجسادهم تهتز كأنها رخوة بلا عظام، كأنهم يزحفون، مشييتهم فيها تفاخر، ثم يندفعون نحوك ثم يمرون من أمامك مباشرة ويشيحون بنظرهم بعيدًا.

بدا هؤلاء الشباب مشوهين لدرجة أنه كان يصعب غالبًا أن تميز إذا كانوا رجالًا أم نساءً. على الأرجح كانوا في حركاتهم غير المبالية يشبهون النساء اللاتي كبرن قبل الأوان ويجعلن أنفسهن يبدون أكبر سنًا وأقبح مظهرًا وأكثر تشوهًا كإهانة في وجه العالم، ثم يتحولون فجأة في لحظة بفعل صدمة ما إلى فرقة قتل للشخص الآخر المقابل لهم.

والشاعر الذي لا يمكنه أن يتوقف عن التدخل حين يزعجه شيء ما بطريقة أو بأخرى، وقع الآن في مصيدة واحد من هؤلاء الشباب. من المحتمل أن الشاعر واجه الشباب دون نية مبيتة وقال إن نواياه أو أفكاره غير معروفة له أو ليست مهمة، وأن مظهره الخارجي فقط وطريقة مشيه دفعاه ليوجه له إهانة بلغة وكلمات فهمها الشاب الآن على الفور.

اتضح في تلك الأثناء أن الشاعر غير قادر تمامًا على الدفاع عن نفسه. فهو لا يستطيع أن يكون عنيقًا، ولم يكن عنيقًا أبدًا من قبل. كما يحدث في الحلم حين تريد أن توجه ضربات لشخص، لكن الضربات تفقد قوتها قبل أن تلمس جسد الشخص الآخر بقليل وتصل إليه على أقصى تقدير كتلامس ضعيف، وهذا ما حدث معه هناك في الواقع.

والجدير بالملاحظة أيضًا أن حتى البطل الأولمبي البارع في العديد من الرياضات لم يكن قادرًا على استخدام أقل قدر من العنف، ولم يكن السبب حالة السكر المحتملة التي هو عليها الآن؛ فهو أيضًا لم يدافع عن نفسه من قبل، فقد كان عاجزًا عن الدفاع عن نفسه منذ أن كان طفلًا. وقد كان البطل الأولمبي هو من بدأ الشاب الآن في توجيه الضربات له.

لم يكن الشاب يحمل سكينًا، لكنه لم يكن بحاجة إلى سلاح إضافي، فقد كان يستعرض نفسه أمام البطل الرياضي في صمت تام ودون صراخ. إن التتابع الاستعراضى السريع للغاية للضربات قد ينتهي بضربة قاتلة. الشاب الذي كان وجهه مجعدًا وكبيرًا في السن عند النظر إليه من قريب، كان متحفزًا ومستعدًا لتكرار حركات الضرب الإيحائية أمام البطل الأولمبي المتصلب في مكانه وأمام الشاعر الواقف بجانبه متحجرًا.

قال لي الصيدلي:

- لاحظت أن قصتي صارت على المحك. كانت قصتي تعني الكثير لي. كيف؟ إذا اكتفيت فقط بمراقبة ما يحدث، لمات الاثنين، وصار كل ما سبق كأن لم يكن. والأمر نفسه يسري في حالة إذا عدت من حيث أتيت، أو واصلت السير أو نظرت في اتجاه آخر. لم أرغب في أن تُسلب قصتي مني. هذا لا يمكن أن يحدث.

«لا» كانت هذه أول كلمة ينطق بها منذ فترة طويلة، بالكاد تمكنت من سماعها تخرج من فمه. ثم قال أيضًا:

- اهدأ يا قلبي!

وهدأ قلبي.

لم يدافع الصيدلي عن نفسه طوال حياته، كان غير قادر على الدفاع عن نفسه، أو لم يرغب في ذلك. كانت طريقته الوحيدة للدفاع عن النفس هي الهدوء؛ أن يصبح هادئًا. والآن، ركض الصيدلي باتجاه الشاب الذي كان يقوم بحركات إيحائية في الهواء بالقرب من الرؤوس والرقاب ويستعد لضربتي كسر الرقبة، وطرحه الصيدلي أرضًا بسهولة. سقط الشاب مصطدماً بسور حلبة مصارعة الثيران ولم يقف مجددًا.

والأشخاص الذين شاهدوا ما حدث تركوا الصيدلي والشاعر والبطل الرياضي يرحلون دون أن يتدخلوا، وبدا أن بعضهم كانوا متفهمين ما حدث، وكأنه لم تكن بعد اللحظة للقيام بأعمال عنف يترتب عليها أشياء أخرى، وما زال الوقت مبكرًا للغاية على نشوب حرب في هذه الدولة. كانت سيارة الصيدلي تقف عند الناصية مباشرة. والآن سرت رعشة جماعية، باستثناء الصيدلي، ظل هادئًا.

ثم أرسل الصيدلي كلاً من الشاعر والبطل الرياضي إلى المنزل في صمت مجددًا وبإشارات حاسمة، حيث وضع مفاتيح سيارته في يد الشاعر ودله على الاتجاه. كان إرساله لهما إلى المنزل مثل تلك الصفحة على وجه ابنه بعد أن أحضره من قسم الشرطة (هناك كاد أن يشتبك مع الشرطي الذي وضع الأصفاذ في يده).

سمع رفيقيه الكلام. لكن قبل أن يرحلا، شربوا جميعًا كأسًا للوداع في بار الفندق. وفجأة بدأ البطل الأولمبي السابق يردد أغنية:

- تفوح رائحة كريمة في الحظيرة. البقرة المجنونة قذفت اللبن في الروث. الأم توفت بسبب ركلة الحصان في صدرها. الشرارات المنبعثة من فرن نشارة الخشب تتطاير عبر الشاشة في سينما القرية. نظرت أسفل تنورات المدرسات. لعبت في حفر القنابل لعبة الجنة والجحيم. تمددت في الفراش ولمست نبات القراص الذي وضعه أبي عند نهاية الفراش. الجار يعامل ابنه دون مبالاة أمام بوابة المنزل. نام كالمقاتل في حقل الذرة. الشرار المنبعث من حواف لوح التزلج يتطاير عبر شاشة التلفزيون. أخي اختفى في كندا. والحب الأول، تزوجت من قديس حديث العهد. أقرن بين جليد اليابان وجليد أمريكا الجنوبية. كسرت ساقني في سباق التزلج على الجليد. مات والدي منذ فترة طويلة. ماتت أختي منذ فترة طويلة. الشرارات المنبعثة من حوافر آلاف الخيول تتطاير عبر المقبرة. بدلت أقفال الشقة من آثار الحب الأخير. لم أعد أخذش المنحنيات. لم أبع الميدالية مرة واحدة فقط. أتهاوى، لكن حتى الآن أجد طريقي إلى المنزل كل مرة. والشرارات تتطاير في الظلام عبر شاشة السينما. وعند الغروب في الصيف أجلس مع فئران الحقول. وفي ليالي الشتاء أجلس مع الأصدقاء. وحين أتحدث عن المنزل أو الوطن لا أقصد المكان أو البيت، بل الطرق عبر الحقول.

مد البطل الرياضي يده لمصافحة الصيدلي. والشاعر راقب الصيدلي دون أن تطرف عينه كأنه يعرف بعض الأمور عنه وعن قصته، ثم نهض الشاعر وتحدث:

- لقد امتطوا أحصنتهم من الصباح حتى المساء، دائمًا منطلقين إلى الأمام. حلقت الفراشات باستمرار وصرفتهم عن دوافعهم الخفية. جلس صرصور عند مدخل كهفهم مثل «بيثيا» الوسيطة الروحية للإله «أبولو». الحل لا يمكن أن يأتي عن طريق التفكير المتعمد، بل عن طريق اتجاه مختلف تمامًا. لم تكن توجد مرجعية، على عكس عصر الملوك. لماذا لم تكن توجد مرجعية؟ لم يكن وحيًا بهذا القدر في أي فصل من فصول العام. هكذا يؤلفون أعمالاً أدبية مثلما يتحدث متسلقو الجبال مع بعضهم وهم معلقون في الحبال. أه، مولود في النمسا! لكن من استطاع أن يقضي حياته كلها في رعب وخوف؟ اترك قلبك ينزف وتحدث. كم كان الرأس غيبًا وكبيرًا!، وكلما كان أكبر، كان الوضع أسوأ.

ابن الملك غير مسموح له بأن يمتطي الحصان بمفرده. جلست السيدة على مسافة رمحين. السيدة التي لا تحمل اسمًا لا تستطيع الزواج. ولا تغلق الأبواب في المدينة بأكملها في أثناء زفافها. لكن لم يعرف أحد أن عليه مواصلة السفر بحصانه كثيرًا. شعرت السيدة الفخور بوحدة لا تقارن. وقرينًا كان الاثنان في

المنزل منهكين. لا تبيك يا بطل عصرنا، إذا بكيت فإنك ستخسر بشكل نهائي. إن الحب دون خوف وقلق هو نار مشتعلة دون دفء. قلبك ينفجر داخل صدرك أيها الفارس. و«هارون» ضرب بعصاه على قلبك، فتحول إلى حجر، وصاغ «موسى» شريعته مجددًا من هذا الحجر. عليك أن تمتطي حصانك عبر كل الطرق وإلا لن تنتهي المغامرة. يجب عليك الانتظار في قصر الملك، لكن أجمل شيء حدث لهم في النهاية كان الاستقبال الرائع. مكاني - وأشاح بوجهه إلى أسفل - ستأتي الرياح ولن يكون لي وجود. حتى الآن كان كل يوم في حياتي عبارة عن إهانة وعار. كنت فخورًا فقط بالليالي التي قضيتها مستيقظًا. الفطر الحبار غارق في الحبر، والشخص المصاب غارق في دمائه. يمكن الشعور بارتفاع الشجرة فقط عن طريق الشخص الموجود بالأعلى في الإكليل.

ثم مد الشاعر يده لمصافحة الصيدلي.

أعطى الصيدلي نقودًا للشاعر والبطل الرياضي وأخذ يراقبهما وهما ينطلقان بسيارته. جلس الشاعر خلف عجلة القيادة، وقال جملة، ثم جملة ثانية. بعد ظهيرة اليوم نفسه تحرك الصيدلي نحو السهوب الموجودة في نهاية الطريق. قبل ذلك كان يقوم في أثناء النهار بجولات بالخارج هناك ويعود كل مرة إلى المدينة بحلول المساء. والآن تحطم الرابط الذي كان يجذبه في كل مرة إلى «سانتا فيه»، وذهب إلى مكان آخر. ولأول مرة في قصته كان اتجاه السماء واضحًا؛ نحو الشمال الغربي.

وفقًا للنتيجة الموجودة في الفندق، يُفترض أن يكون القمر اليوم على شكل هلال، لكن في ضوء النهار ظهر القمر في السماء على شكل منجل. كانت النتيجة من العام الماضي.

تحرك الراوي بحيوية لأول مرة متجهًا بعيدًا عن عالم البشر. تحرك بحيوية نحو السهوب. لا بد أن تمتطي حصانك عبر آلاف الشوارع، وإلا لن تنتهي مغامرتك أبدًا.



خلع نظارته الشمسية كما يفعل في رحلاته الاستكشافية، بمجرد أن ابتعد عن المنازل ووصل إلى الأرض العشبية، لم يكن السبب فقط أن الضوء هنا أقل حدة من الضوء بين المنازل المبنية من الجير الأبيض، كما أن التفاصيل بالخارج أثرت فيه بشكل مختلف تمامًا. لم يستخدم النظارة الشمسية للحظة واحدة خلال الفترة التالية، حتى في أشعة الشمس الساطعة بقوة. هل خطأ بكل خطوة يسيرها الآن من قبل؟ أم أن أسلافه مروا من هذا الطريق؟ أيهم؟ الملك «جلجامش» عداء السهوب؟ وفي الوقت ذاته - كما حدث في كل مرة حتى الآن حين يشعر أنه عايش ما يحدث من قبل - يبدو أن هناك خطر كبير يهدده.

كانت المدينة وراء ظهره تبدو حديثة تمامًا، الأوناش، والمناشير الكهربائية، وآلات إزالة الإسفلت. لكن مع الخطوة الأولى من نهاية الطريق الإسفلتي والدخول إلى حشائش السافانا بدأ عالم أصوات مختلف. فالخطوات نفسها أصبحت غير مسموعة، وكانت على كل حال أقل إلحاحًا من آلاف الأصوات الأخرى الموجودة في العشب، كأنك خلعت الحذاء في أثناء المشي.

الحشائش والأرض العشبية لا يتطابقان في هذا الأمر على الإطلاق. هذه السهوب المرتفعة كانت تتكون من حشائش، لكن كل جزء من السهوب كان يتكون من نوع خاص من الحشائش. هذه السهوب المرتفعة تتكون من أعشاب ونباتات شوكية جافة من فترة نهاية الصيف، وبينها تربة رخوة تشبه رواسب الحطام والرماد، أو أن كل مكان بالسهب يذكرك بطريق مدفون. في الواقع، كان يرى في المكان بقايا زجاج مكسور، وشظايا خزف، وأغطية زجاجات، وما

شابه ذلك في الأرض. نمت في المكان شجرة جوز واحدة فقط، ذات قشور مفتوحة، مد يده إليها ليجمع القليل من الثمار كمخزون له في أثناء الرحلة. كان اللون الرمادي هو السائد في السهوب، لون رمادي يميل إلى الفضي. وانبعثت منه رائحة بمجرد أن مد يديه الاثنان إلى زهور البابونج الرمادية الذابلة، وشجيرات اليانسون، وأعشاب اللافندر الرمادية الذابلة. ظلت تلك الرائحة عالقة بأنفه حين كان يحكي لي قصته في الشتاء التالي.

سار الصيدلي لفترة طويلة في السهوب بظهره، وألقى بضع نظرات الوداع على مدينة الرياح الليلية. كانت المنازل هناك متباينة مع المنطقة المحيطة هنا وأقل من الحواف الخضراء للنهرين اللذين يصبان في بعضهما بالأسفل وبساتين الخضروات ومروج شجر الحور. دون أشعة الشمس في قمم شجر الحور المرتفعة - المكان الوحيد الذي تصل إليه الشمس في الجزء السفلي من المدينة - لبدت له المنطقة غارقة في شفق مظلم. صوت طرق بعيد يتضاعف بفعل صدى الصخور، ينعكس الصدى من الصخور كأنه يأتي من قريب، وكل هذا يُسمع مثل نداءات المؤذن من مآذن المدينة الكثيرة. وفي الوقت ذاته، تثار أسفل خطواته المتراجعة إلى الخلف عدد لا يُحصى من الجراد الرمادي اللون مُصدراً صوتاً يشبه صوت تقليم أظافر اليد.

استدار الصيدلي مئة وثمانين درجة. لقد جاء إلى السهوب ليحضر شيئاً ما من هناك. لمن؟ أيّاً كان. فقط ليحضر شيئاً ما. كان لا يزال يرتدي في تلك الأثناء زي العمل الأزرق الشاحب المتكون من جاكيت قصير بحزام وبنطلون. بالإضافة إلى ذلك ربط حول جبهته منشفة بسبب الشمس. حين يربط المنشفة بقوة فإن حواجه تختفي أسفلها ويبدو كأن عينيه أيضاً مربوطتان. وفي واقع الأمر كان يرى بصورة أفضل. وعلى الرغم من أن المحيط كان يقع على بعد آلاف الأميال، كانت زرقة البحر تلوح في الأفق القريب.

سار الصيدلي في السهوب حتى المساء، دون أن يمر بمغامرة واحدة، ولم يقابل حتى حيواناً كبيراً. أكبر حيوان قابله كان نسرًا يحلق فوقه بالأعلى في اتجاه السافانا، وجناحه مثل سكينين مفتوحين، ويحلق خلفه لفترة من الوقت سرب من الغربان السوداء التي أطلقت وابلًا من الصيحات في السماء كالكورال، في حين أن النسر حلق عاليًا هنا وهناك وصدر عنه صيحة حادة ذات مقطع واحد.

لكن الصيدلي كان ينظر إلى الأمام وفي الغالب إلى الأرض بحثًا عن أنواع خاصة من الفطر، الأنواع المرة الطعم - إذا كان متخصصًا في الفطر، لأطلق عليها اسم «الفطر المر» - من أجل الكتاب الذي يريد كتابته عن الفطر بعد عودته، وكذلك لأن هذا بدا له أفضل في الوقت الحالي. كان ينظر أو يدير رأسه فقط حين يسمع صوت سيارة في البراري الشاسعة الواقعة بعيدًا عن الطرق

الممهدة (السيارة الحساسة للغاية فقط قد تحتاج إلى طريق سليم). خلال الساعات الأولى مرت به بضع سيارات، على مسافات كبيرة وكل مرة كانت واحدة من سيارات الدفع الرباعي ماركة «سانتانا» التي كان يوجد منها أحجام وأشكال عديدة. لاحظ فيما بعد أن السير دون مبالاة عبر السهوب كان فكرة مجردة؛ فقد كان على قائدي السيارات أن ينتبهوا إلى الحفر العميقة في بعض الأماكن بالأرض الناتجة عن جداول المياه المتقطعة، وتجنبها مثلما يتجنبها هو.

التفت الصيدلي حول نفسه حين سمع العدائين يلهثون وراءه كما حدث في الساعة الأولى من سيره في السهوب. حاول في البداية أن يسرع الخطى أمامهم كما يفعلون، ثم أبطأ خطاه. لم يرفع رأسه أيضًا من أجل راكبي الدراجات الذين اقتحموا السهوب بدراجات ذات إطارات عريضة وأصيبوا بصدمة من المنظر، وسبق وصولهم صرخة واصطدام من بعيد بالأرض العشبية الخالية من الأشجار. ظل راكبو الدراجات مرافقين له في الطريق حتى وصل إلى المناطق التي لا يوجد فيها سوى نقيق الصراصير من جميع الجهات. لم يكن بحاجة لأن ينظر إلى وجوههم المغطاة بالخوذات ولا أجسادهم الانسيابية المنطلقة نحو الطبيعة. تحت إطارات دراجاتهم تكسرت النباتات واقتلعت من جذورها وسحقت أو فقدت التربة الجرثومية التي تكونت. وبدا أن كل واحد منهم يعد نفسه تجسيدًا للمغامرة، لكن هذه لم تكن المغامرة التي يبحث عنها الصيدلي.

قبل غروب الشمس، كان الصيدلي وحيدًا مع السهوب. ظهر في تلك الأثناء حيوان كبير، كلب دون صاحبه. كان يعيش في حفرة أرضية، كشر له في البداية عن أنيابه، ثم لحس أصابعه ورافقه لفترة طويلة. ساد الصمت المكان الآن لدرجة أنه وضع يديه على أذنيه بشكل لا إرادي بسبب بعض الأصوات التي كان يسمعا بالكاد، وتأتي غالبًا من باطن الأرض. وحين يمر النسيم عبر النباتات الجافة كان يصدر صوتًا يشبه صوت تصفح ورق طباعة رقيق.

نعم، لقد كان في هذه المنطقة ذات مرة قبل فترة طويلة، وشعر بهذا الآن بكامل جسده، لكنه لم يكن بمفرده. والآن سيحتاج قريبًا إلى مكان يقضي فيه ليلته، نظر وهو يحمي عينيه من آخر أشعة للشمس، نظر إلى أبعد ظل سحاب في الطبيعة، كان الظل هناك بلا حركة، لكنه لم ير إشارة واحدة على وجود منطقة سكنية. وفي الوقت ذاته، ظهرت أسفل قدميه هناك علامة بارزة أو لافتة طريق مختلفة أسفل نبتة توت أسود. طبقًا للافتة فالمسافة ليست بعيدة حتى تصل إلى «لوس جيرونيموس». ومن ناحية أخرى، ألم يمر من قبل على لافتة مكان تحمل اسم «لوس لوبوس» (الذئب) - كيف لا يجد هذا المكان، وكذلك لافتة تحمل اسم «فيمار» - ثم لم يجد شيئًا مجددًا.

إلا أنه سمع الآن هنا صياح الديك وصوت يشبه صوت الديك الرومي. سار الصيدلي في اتجاه الصوت ووصل إلى وادٍ خفي، لا يوجد فيه سوى أطلال كنيسة وجانبها حديقة ومخزن خشبي. لم يقطع مسافة طويلة، فقد كان يتبع طريقة مشي مختلفة في حشائش السافانا، حيث باعد بين ساقيه، ووجه باطن قدميه إلى الأمام قليلاً، مثل كاسحة الثلج. رأى قنفذًا يسير عند مدخل الحديقة، وهو لم ير قنفذًا منذ فترة طويلة، ومع غروب الشمس المتزامن الآن في اللحظة التي سبقت اختفائه، بدا القنفذ فجأة ضخماً وبدائيًا.

- كان أكبر حيوان رأيته في رحلتي على الإطلاق.

في الوقت الذي كانت تدور فيه أحداث القصة كان يوجد في أوروبا العديد من النّسك. عاش أحدهم أيضًا في وادي السهوب ووجد عنده الراوي مكانًا للمبيت. حصل الراوي على طعام وسرير في المنزل المتنقل المهجور خلف أطلال الكنيسة.

لم يتفوه أي منهما بكلمة. وفي صباح اليوم التالي، اتضح من الصفير الصادر عن غلاية القهوة أن الناسك أصم. لفت انتباه الراوي الآن الشبه بين الناسك وأحد معارفه ومعارفي، مدرس اللغات القديمة المفقود «أندرياس لوزر» من مدينة «سالزبورج». نعم، إنه هو. لكنهما تصرفا وكأنهما لا يعرفان بعض. ذكر الناسك فقط بعد تردد اسم قهوة «جامايكا بلو ماونتن» المستوردة من جامايكا. لقد كان الناسك الوحيد من بيننا نحن الثلاثة الذي أصيب بالصمم وتحديدًا بسبب الصمت الأبدي بوادي السهوب، بعد أن كان يمضي نفسه بمواصلة الطريق من خلال السمع والإنصات. وقد حدث هذا في منطقة تدعى «سافانا سونورا».

حكى لي الراوي:

- بعد قضاء ليلة واحدة هناك شعرت أن أذناي مغلقتان، فقد مرت الليلة في صمت، حتى الديوك والديك الرومي كانوا صامتين، وحين استيقظت أردت أن أقرع جرس الكنيسة بعضا حديدية حتى يصل أي صوت إلى أذني.

- هل قام «لوزر» على الأقل بقص العشب من أجل حصانك، كما يتعين على ناسك مثله أن يفعل؟

- نعم. وعلاوة على ذلك بدا لي في أثناء الفترة التي قضيتها في السهوب كأنني أمتطي حصانًا يركض، في حين كنت أسير على قدمي.

ما أزعجه في البداية في أثناء مواصلة السير، كانت الشمس المسلطة على ظهره ورؤية ظله باستمرار أمامه؛ ولهذا السبب كان يسير في بعض الأحيان مثل السلطعون. لكن بعد ذلك كان ينظر إلى التفاصيل في الأرض التي بدت أكثر وضوحًا بفضل ظله. وبحلول الظهر اختفى الظل من أمامه. إن رؤية ظله

كانت الآن موضع ترحيب، لأن رؤيته فوق حشائش السافانا متماثلة الشكل كان يعطيه شعورًا بالحركة وبالرفقة.

وهكذا سار الصيدلي طوال اليوم. ولم يصادف بلدة، لكنه لم يمر عليه يوم ظل فيه بمفرده. حيث رأى ذات مرة من بعيد شخصًا يسير على طريق آخر في السهوب ويجر عربة. انعطف الشخص ناحية الصيدلي وسمع الصيدلي إيقاعات تشبه إيقاعات «الفلوت»، لكنها أكثر صخبًا وبعيدة المدى وواسعة الانتشار، واللحن يتكرر دون انقطاع. كان هذا الشخص بائعًا متجولًا أعلن عن وجوده بواسطة قلم معدني ذي ثقب الـ«فلوت» وكان مرحبًا به للغاية، فقد كان رباط حذاء الصيدلي ممزقًا في تلك الأثناء. نقش على العربة اليدوية التي يجرها البائع المتجول بأحرف كبيرة «ULTRAMARINOS» وهذا يعني (بضائع مما وراء البحار) - أم أن البائع المتجول جاء فقط لكي يلمع له حذائه - لكن كيف؟

بعد ظهيرة أحد الأيام مدد الصيدلي جسده من أجل النوم لفترة قصيرة في قطعة من المروج مغطاة بفروع شجرة ظليلة، وحين نهض، قفز فجأة بجانبه شيء ثقيل إلى أعلى مع صراخ؛ من جديد كلب مكار صغير بلا صاحب في السهوب، كان قد مدد جسده هنا من قبل ونام ولم ينتبه له الصيدلي وكان بينهما مسافة شبر في الحشيش، الذي وصل طوله إلى الخصر، لكن الكلب خاف الآن وهرب من حفرة التي ورثها عن والده على ما يبدو. ورأى الصيدلي ذات مرة كتاكيت رمادية اللون تجري أمامه في السهوب ببطء في البداية، وفجأة بسرعة منطلقين كالسهم المائل في الهواء، مستعمرة كاملة من السمان تطير هنا وهناك كأنها خرجت من الأرض فجأة ويصوب عليها بضعة صيادين في الوقت نفسه.

قبل ظهيرة أحد الأيام، قابل الصيدلي عداءً في السهوب. من أين أتى؟ كانت القماشة المعلقة على صدره عليها بقعة عرق وحيدة، ثم عداء آخر يجري أسرع ويتجاوز الصيدلي، ثم يستدير ويقف في طريقه وفي يده بندقية، إنه ليس صيادًا بالتأكيد، وجه البندقية نحو الصيدلي ورفع زر الأمان واتهمه باغتصاب زوجته وطلب منه أن يأتي معه لمواجهة زوجته، لكنه نظر بعد ذلك إلى الفطر في يد الصيدلي ثم واصل الجري دون أن يتفوه بكلمة، وفي اتجاه مغاير تمامًا.

وذات مساء، قابل الصيدلي مجموعة صغيرة تتكون من امرأة شابة على حصان، وتتوسط جندي يبدو وكأنه لا يزال طفلًا وبدلته ممزقة، ورجل من العصور الوسطى يرتدي معطفًا طويلًا مفتوحًا يغطيه التراب، ويقف على أحد كتفيه صقر صغير ذو خطوط أفقية داكنة وعينان صفراوان، وعلى الكتف الآخر رزمة كروت اللعب مثبتة في إبزيم المعطف. سألوا الصيدلي ما إذا رأى رجلًا عجوزًا نائمًا، وربما مرتبًا، يكتب في أثناء السير على الهواء، وبين الحين والآخر يقفز، الأمر الذي يتناقض مع سنه، فهم يبحثون عنه منذ أسابيع ولا يريدون

العودة إلى المنزل دونه سواء حيّ أو ميت. على الرغم من أنه هز رأسه بالنفي للرد على سؤالهم وواصل السير، فقد بدا له فيما بعد أن الشخص الذي يبحثون عنه قد قابله في مكان ما بالصدفة وأخذ يفكر في تتابع الأحداث طول الليل وأين قابله وبأي طريقة. لا، إنه لم يره ولم يسمعه أو يشم رائحته - قد يكون على يقين من أنه لم يشم رائحته من قبل - لكن لقد كوّن صورة خيالية عن هذا الشخص فقط عن طريق إلحاح فريق البحث الصغير.

في تلك الأثناء، سار الصيدلي آلاف الخطوات في السهوب في اتجاه الغرب وسمع أكثر من مرة مجددًا إيقاعات الفلوت الحادة. ومن جديد، انحرفت العربة اليدوية مع البائع المتجول في اتجاه الصيدلي وقدم له تحديدًا ما كان في أشد الحاجة إليه الآن، أو ما تمناه، ألا وهو تفاحة وضمادة.

استمر الصيدلي في السير إلى الأمام بقدر المستطاع. وإذا انحرف عن اتجاهه، كان يستدير ويعود إلى النقطة التي انحرف فيها عن الطريق. وهذا يعني أنه لا يفعل شيئًا سوى مواصلة السير والتقدم حتى ولو كان إيجاد الاتجاه مرة أخرى بهذه الطريقة يواجه صعوبات لا يمكن التغلب عليها. وربما يسلك طريقًا غير مباشر (حتى إذا كان صغيرًا). لكن لا خطوة إلى الخلف. كانت هذه طريقته؛ التقدم إلى الأمام مع السير بظهره.

وحتى الطرق غير المباشرة التي من صنع الطبيعة كان يختصرها أحيانًا بتهور. وهكذا كان يسلك منحنيات الوادي منزلقًا إلى أسفل ويقع ويتدحرج أكثر من مرة. وبدا أنه قد أدمن لحظات الانزلاق السريع تلك، حيث كان يشم الزعتر وهو على الطريق هنا وهناك ويقطف بضع ثمرات من التوت الأسود ويضعهم في فمه، وحفظ في ذاكرته نموذج سوس الخشب وهو ينخر في فرع من دون لحاء.

كان من الطبيعي أن حواسه تزداد حدة بفعل تلك المخاطر. وقد استمر هذا التأثير لفترة طويلة؛ ولهذا لم يكن يتجنب تلك المخاطر. فالخوف الذي كان يصيبه في أثناء التعثر والسقوط جعل عينيه تتسعان عن آخرهما بحيث إنه كان بعد ذلك في أثناء مواصلة السير يرى السهوب أمامه أوضح، كأنها تظهر على شاشة عريضة ويسير على أرض آمنة، وهو الذي كان يُصاب بإرهاق حين يكون في الطريق مرة واحدة في أثناء اليوم.

قال لي الراوي:

- وهكذا لم يكن ينقصني شيء. لكن تحديدًا حين لا ينقصني شيء، كان ينقصني أحيانًا كل شيء تقريبًا. ولذلك كنت أفضل مع مرور الوقت.. الانتعاش الذي يحدث بسبب شيء مختلف عن ذلك الانتعاش الذي يحدث في الوقت الحاضر، وكل يوم عن طريق الأحوال التي أتعرض لها. وقد لفت انتباهي أنني بدأت بين الفينة والأخرى بعد أن امتلأت بما قابلني في الطريق أن أحكي في

هدوء ودون قصد. ربما لم أحكٍ لشخص محدد - أم نعم؟! - لكن بالتأكيد لم أحكٍ نفسي. مثل هذا الحكي وصل بعيدًا - على سبيل المثال - إلى السهوب المحيطة بي.

وتحديدًا عن طريق التناقض بين هذه اللحظات وتلك اللحظات التي أكون فيها غارقًا في أفكاري في مكان مختلف تمامًا، وأشعر بالقلق وأتشاجر مع نفسي ومع العالم، أو الحالة الأسوأ وهي الصمت الداخلي وأدرك ما المميز في هذه الحالة. حين أغرق في نوبة الحكي تلك بشكل لا إرادي، لا أذهب بأفكاري بعيدًا في مكان آخر، بل إنني ألاحظ المكان المحيط بي بحدة أكثر من ملاحظتي له في أثناء وبعد الخطر، حتى وإن كان هذا الحكي عن أشخاص غائبين أو بعيدين. إذا لم تكن الملاحظة أكثر حدة، فإنها تكون ملونة وأكثر ثراءً. العالم الداخلي والعالم الخارجي يخترقان بعضهما وبصبحان عالمًا واحدًا. الحكي والسهوب أصبحا واحدًا. وهكذا كنت في المكان المناسب. إن مثل هذا الحكي بدأ استكشافياً وينشئ جسورًا بين النفس والعالم الخارجي ويؤدي إلى رؤية أوسع، بمعنى نظرة عامة متعمقة.

ذات مرة، بقي الصيدلي في أثناء الليل في جراج بالسهوب يقع على أحد المنحدرات. كان بالجراج سرير إلى جانب طاولة طعام. في مرة أخرى، نام الصيدلي في معسكر محاط بأبراج مراقبة وأسلاك شائكة، وفي مرة ثانية نام في كشك سلك حديدية صغير مهجور بين الخردة هناك (لكن الخردة أصبحت في أثناء الليل سليمة من جديد واحتلت أماكنها السابقة).

كان ينام بعمق ودون أحلام، حتى لو لفترة قصيرة. كان نفاذ الصبر يوقظه من النوم، نفاذ صبر لمواصلة الانطلاق في السهوب. كان ممددًا هناك في ظلام القمر ولم يستطع أن يفهم كم من الوقت يحتاج حتى تظهر أولى علامات النهار. لعن الظلام الفسيح الممتد الذي لم يتبدل لساعات. أين أول ضوء النهار وأول طائر؟ لننتهي من صيحات اليوم.

في تلك الليلة التي قضاها بالجراج، أضاء النور وشغل التلفزيون وحاول أن يقرأ صحيفة ملطخة بالزيت. لكن الصحيفة التي كانت تحمل اسم «يوم سانتا فيه» - كان ما زال موجودًا في مدينة الرياح الليلية - يرجع تاريخها إلى الربيع الماضي وأخبار التلفزيون كانت أخبار أول أمس وبعد غد. والمرة الوحيدة التي لم يستطع أن ينتظر ليخرج إلى السهوب وانطلق في الظلام الحالك حتى أنهكه تحسس الطريق عن طريق المحاولة والخطأ لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يفتح عينيه طوال اليوم.

وبدلاً من لافتات الأماكن المائلة الغارقة حتى نصفها في تراب السهوب (الأماكن نفسها كانت غارقة تمامًا) مثل «سانتا أنا»، و«سان خوان» أو «سان فرانسيسكو»، كان يتمنى مع الوقت أن يجد لافتة تحمل اسم «سانتا باسينسيا».

لم يعتقد أبدًا أنه يمكن أن يُصاب بالإرهاق من النظر إلى النجوم المتألقة في السماء؛ نجوم «الصيد أوريون»¹ التي تكون قريبة في فصل الخريف كل ليلة، والآن نظر نحو السماء إلى أعلى فقط، لكي يرى كل النجوم، نجوم تشكل ركب الصيد، ونجوم تشكل حزامه ونجوم تشكل حامله السهام وهي تتلاشى عند شروق الشمس. اختفت حامله السهام أولًا، ثم حان وقت اختفاء أول نجمة من نجوم الحزام الثلاثة، ثم بقت نجمة واحدة من نجمتي الكتف ونجمة الركبة «الدبران» التي يتلاشى بريقها بظهور النهار.

«أخيرًا اختفت النجوم والسماء خالية، علامة على إمكانية التحرك».

لكن عند تدقيق النظر، ما زالت بعض نجوم «الصيد أوريون» تلمع في السماء في ضوء النهار، وكذلك نجوم «الحزام» و«حامله السهام» تبرز مجددًا في ضوء السماء..

- أم أن ما أراه مجرد طيف أسود؟ «سانتا باثينسيا» Santa Paciencia.
قال الصيدلي:

- دائمًا ما كانت الخطوة الأولى على أرض السهوب مثيرة، الانتقال من المساحات الأسفلتية المرصوفة المغطاة بالخرسانة أمام الجراج، والمعسكر، ومحطة القطار، وحظيرة الماشية المهجورة إلى هذه التربة التحتية المستخدم فيها مواد تقلل من الحمل على الأسفلت. كم يكون الجسد خفيفًا في أثناء السير على تلك التربة التحتية!.. خفيفًا للغاية؛ ولهذا السبب أيضًا وضعت أحجاءًا في جيوبي وفهمت الآن بشكل أفضل الشاعر الذي قال ذات مرة أنه كان يأكل كثيرًا أو يأخذ معه أشياء كثيرة، لأنه لم يرد أن يتخلص من حماسه الدائم، بل أراد شحنه بقوة جاذبية. من الممكن أن تكون مثل تلك الحالة قد ازدادت بفعل روائح التوابل العطرية الخاصة المنبعثة من أرض السهوب؟ نعم، لكن تلك الروائح لم تكن بأي حال المحفز الرئيس. فمع نهاية اليوم، كانت تلك الروائح تسبب له الصداع في كل مرة وتجعله على وشك الغثيان. كانت توجد وفرة من تلك الروائح، والتي تختلف وتتدرج من نبات إلى نبات لدرجة أنني تخيلت أنه يمكن أن نستخرج منها جميعًا خلاصة كحولية لم نشم أو نتذوق مثلها من قبل وأخذها معي إلى وطني وهي تمتلك قدرة على الشفاء بالتأكيد، لأنها تساعد على التنفس بعمق. بمرور الوقت أدركت في عالم نباتات السهوب معنى مختلف تمامًا لكلمة خلاصة؛ فقد كانت تزهر هناك أو تثمر الأوراق، والحبوب، والأعشاب، والفروع بالأعلى فوق الجذوع والسيقان المرتفعة حتى في فصل الصيف، في حين أنها كانت في الأماكن الأخرى جافة ولونها يتراوح بين الأصفر الشاحب والرمادي. لتكشف بذلك أن تلك السهوب تختلف تمامًا عن غيرها. حتى بقايا الزهور الذابلة والثمار وقعت على الأرض وحملتها الرياح بعيدًا. وما تبقى من بحر الزهور

والثمار الصغيرة كان فقط ما يقدم الحماية لبتلات الزهور والأسدية، والسيقان، وبالإضافة إليها أيضًا كؤوس الزهور، ودعامات الزهور الفارغة، وكبسولات الثمار الفارغة، والأغلفة الخارجية. العديد من سلاسل الزهور والثمار الصغيرة ومتناهية الصغر غالبًا لونها بني فاتح وأبيض تنتشر في السهوب، وترتفع إلى أعلى من جذوعها الطويلة الشاحبة مع ثراء كبير في الأشكال الأسطوانية، والحلزونية، والتروس، وأقراص العسل، وكذلك أشكال ثلاثية وثمانية وتساعية من تلك الأزهار الصغيرة. كانت تلك النباتات الكثيرة المختلفة الشكل هي التي فاجأتني هناك كخلاصة فريدة من نوعها. وبدا لي أن عالمًا خفيًا أو مختفيًا في تلك النباتات الصغيرة، وأنه يمكن دراسة هذا العالم من جديد، لكن كلمة «مختفي» لا تعني أنه «فقد رائحته». فقد كانت نبتة «اللافندر» تفوح منها رائحة «اللافندر»، وكبسولات بذور «الخشخاش» الفارغة تفوح منها رائحة «الخشخاش»، وبذور «الكرابية» الخالية تفوح منها رائحة «الكرابية» بقوة. وهكذا بدت لي تلك الرائحة المنبعثة من آلاف الثمار الفارغة كخلاصة. عند النظر إلى هياكل النباتات واستنشاقها والإنصات إليها (صوت خشخشة الكبسولات) - نعم، لقد شعرت بنوع من الحب تجاهها - شاهدت هيكل العظمي ولا أستطيع أن أدعي أنني قد أكون شعرت بالرعب. انحنيت إلى بقايا النباتات وعايشت للحظات رحلة الصعود إلى السماء وأين شعرت بهذه الرحلة؟ في عظامي. ولا بد أن أضيف أنني بعد هذا اليوم تعجبت في المساء في المخيم الليلي أنني خرجت حيًا من جديد من تلك السهوب المخيفة لدرجة الموت!

قال صيدلي «تاكسهام»:

- ولأنني الآن أقدمت على الحديث عما حدث في السهوب، سأحكي أيضًا قليلًا عن نفسي وعن الفطر الموجود في السهوب، لكن سأحكي بشكل مقتضب لأن ولعي بالفطر جعل زوجتي تتعد عني وأنا لا أريد الآن أن أفقد كاتبي أيضًا. دعنا نتجاوز هذا الأمر حتى نكمل قصتي. من ناحية أخرى أريد أن أوه سريعًا إلى أنني مقتنع بأن آخر موضوع حوار مشترك للبشرية باستثناء موضوعات الصحف والتليفزيون الحالية هو أنواع الفطر المختلفة؛ آخر موضوع يمكن أن يشارك فيه الناس، حتى الغرباء يعبروه اهتمامًا على مريض. ربما تكون هذه مغامرتنا المحتملة المشتركة الأخيرة لهذا اليوم، لأنها من الصعب حكايتها. علاوة على كونها لا تنتهي. مثل السهوب التي يصعب الحكي عنها، لأنها تتعارض مع الصور. سوف يكون كتابي عن الفطر كتاب يجعل الناس يهتفون: «نعم، هذا تحديدًا ما قلته دائمًا». حتى ولو لم يقولوا هذا من قبل. وقد حدث الآن أنني مع كل الاكتشافات الثرية من النباتات والأحجار في السهوب، كان يملكني شعور حقيقي بالاكتشاف مع الفطر فقط. حتى أنواع الفطر السامة غير الصالحة للأكل كنت أقضم منها في الطريق أو أضع قطعة منها على الأقل تحت لساني. كان مذاقها غير جيد. نعم، بدت لي غالبًا هكذا بسبب كوني وحيدًا وبسبب فقدان

النطق؛ كنت أرغب في مذاق حامض لقمي، ومذاق مر لللساني، وكان الفطر الأكثر مرارة مناسب لي. بعض الفطر كان مرًا للغاية لدرجة أنني كنت أصاب بصدمة في داخلي. في كتابي عن الفطر سأنصح بتناول بعض أنواع الفطر المر كما هي دون أي إضافات.

لكن الفطر حلو المذاق. كيف أدركت فجأة هذه العلاقة؟

سألته:

- ماذا؟

قال الصيدلي:

- نعم، ألم يعني هذا شيئًا؟ المنظر وحده أيقظني.

قلت:

- مثلما تفعل الفريسة بالصياد؟

قال الصيدلي:

- نعم، ربما. فقط أن الفطر لا يهرب مني، بل على العكس بدا أنه كان ينتظرنني وقال لي: «أخيرًا وجدتني». بالتأكيد لا يوجد الكثير منه. فالكثير من الجمال يصيبك بالإزعاج واللامبالاة. وهناك نقطة أخرى سأذكرها لنتهي من موضوع الفطر؛ أشم في الفطر رائحة جميع أقاربي أبي، وأمي، وجدتي، وجدتي، وأبنائي حين كانوا أطفالًا.

بعد ذلك مرت أيام لم يكن الراوي يبحث عن شيء في طريقه عبر السهوب. وقد شعر بهذا كنوع من الحرية، قال إنه لم يشعر بها من قبل بسبب البحث.

كان شخص ما يجلس على قمة التل ويصطاد في الهواء. والزهور الشوكية بالأسفل على الأرض لونها أسود وتشبه قنفذ البحر. في يوم لا رياح به، نفتت ذكور نبات «العرعر» حبوب اللقاح في اتجاه الإناث.

- هل كانت توجد زهور في السهوب في الخريف؟

- نعم. في غابة الصنوبر.

- هل كانت توجد غابات في السهوب؟

- نعم. كانت توجد شجرة على شكل مخروطي من أجل السناجب (مثل الشجر الذي تنام فيه الطيور في المدن) والتربة الصنوبرية مغطاة بما يشبه بقايا التفاح. والحشائش المرتفعة هناك - فجأة توجد في السهوب حشائش فقط - كانت تهز رؤوسها بالإيجاب والنفي في الوقت ذاته. كانت السماء مغطاة بسحب بيضاء اللون مموجة ذات رغوّة تشبه موج البحر. توجد أحجار بيضاوية مسطحة هنا وهناك بالأعلى فوق التل وفي وسطها دائرة سوداء؛ حصى

مصقول من العصر الجليدي غارق هنا في البحر، ويطلق عليها اسم «حصوات العين».

حين كان الصيدلي ينفخ من كامل رثيته المخلوقات الصغيرة والمتناهية الصغر التي استقرت عليه، فإنها كانت تبقى في موضعها. ذات ليلة باردة وضع الصيدلي كلتا يديه في فطر جمعه في أثناء النهار كبير الحجم مثل رأس الثور، لونه أحمر داكن يميل إلى الأسود، وترك دفة الشمس ينتقل إلى داخل الفطر؛ ليحدث تأثيره. تحرك جناح فراشة وحيد وتأرجح في خط متعرج، كان متعدد الألوان وكانت تحمله نملة سوداء. وبدا أن النمل لا يبني مستعمرة هنا. على أقصى تقدير جاءت ثلاث أو أربع نملات كل واحدة من حفرة تشكل قري ونجوع صغيرة للنمل تقع بعيدة عن بعضها وليس لها علاقة ببعض.

الدبابير تحلق في كل مكان هنا بالقرب من الأرض. وجرادة كبيرة تحمل جرادة صغيرة على ظهرها، وسقطت الجرادة الصغيرة وأخذت تقوم بقفزات في الهواء بحثًا عن حاملتها. وجدت كل منهما الأخرى وصعدت الصغيرة فوق ظهر الكبيرة مجددًا ليظهرها على شكل حصان. وفراشات السهوب على شكل خراف. واحدة من الفراشات رمادية اللون كانت تطير أمام جدار صخري رمادي اللون، وكان يمكن رؤيتها فقط عن طريق ظلها المنعكس على الصخور.

كانت توجد في السهوب بين الحين والآخر خلايا نحل مصفوفة على جدار صخري ويصدر عنها طنين مستمر. وعند انزلاق النحل العائد عبر الفتحات المظلمة كانت سيقانها الصفراء اللون تضيء...

- ما زال هناك شيء مزهر إداً؟

وعند مروره كل مرة على خلية النحل كان يهاجمه حيوان يتحرك نحوه بسرعة، لا بد أنه الحارس المسؤول عن حماية الخلية أو رجل شرطة وغالبًا ما يلدغه في خده.

كانت توجد مناطق خضراء صغيرة في وسط نباتات السهوب المرتفعة المتناثرة، ويمكنك رؤيتها فقط حين تقف أمامها، وكانت عبارة عن بساتين خضروات طبيعية مع حماض بستاني ونبات آخر يذكرك بسلطة الهندباء البرية، لكنه أكثر سمكًا وليّنًا منها وأكثر عصارة، إلا أنه يشبهها في مرارة الطعم. قال لي الصيدلي:

- لم أتناول طعامًا لذيذًا مثل الذي أكلته هناك. دائمًا ما كنت أتناول وجبات صغيرة، لكنها أذ في الطعم. ولم أقرأ أبدًا هناك، أو أن السهوب والأماكن هناك كانت بمنزلة مكتبتني.

ثم قل عدد خلايا النحل باستمرار والنحل الذي كان ينزلق إلى داخل الخلايا لديه مسحوق أصفر أقل بالخلف في أقدامه. وفي النهاية، كانت الأقدام الخلفية

للنحل خالية تمامًا من المسحوق الأصفر. وكذلك كان التوت الأسود الذي وجده الصيدلي.. نصف الثمرة ناضج والنصف الثاني أخضر وقد لا ينضج. لكن في الوقت ذاته أزهرت بجانب أطلال منزل شجرة «ماجنوليا» وهي تزهر لأول مرة في العام في فصل الربيع.

بالطبع كان الانطباع السائد بصفة خاصة في غابات الصنوبر التي تشبه الجزيرة، حيث تسمع صوت أشواك متواصل أسفل قدميك، انطباع أيام ما قبل الربيع. في أحد تلك الأيام المشمسة الباردة، أخذ الصيدلي قسطًا من الراحة في المساء في مكان محمي من الرياح عند سفح منحدر صغير من الطين الأصفر خالٍ من النباتات ووراءه منحدر آخر. مدد الصيدلي جسده بين المنحدرين كأنه ممدد فوق أرض وادٍ. استلقى على جانبه وتحت أرض مغطاة بأشواك الصنوبر، ويخرج منها نبات هنا وهناك يتكون من ورقة واحدة رقيقة بالأعلى على جذع عارٍ ويصدر عن تلك الأوراق رنين معدني.

تحرك بصره بحرية نحو الجدار الطيني القريب. كان هذا الجدار مجوفًا بالطول وفيه فجوات، وفكر الصيدلي في أن هذا التجويف مع غبار الطين اللين وأشواك الصنوبر التي تكون مفرشًا قد تكون مكانًا جيدًا للمبيت. فهو لا يرى شيئًا أمام عينيه سوى سطح الأرض المتشقق ذو اللون الأصفر، والرمادي، والأحمر يضيء بفعل أشعة الشمس.

ومنذ ذلك الوقت انغمس الصيدلي في المشاهدة بعمق كشاهد على أبسط الأحداث غير المثيرة، مثل إذا كان المطر يزداد أو يضعف، وحين يذوب الجليد وحين تجف حفرة ماء. وكان يراقب كذلك الكهف الطيني وأشعة الشمس تضيئه.

كان الضوء في الواقع يبدو كضوء صناعي ناتج عن المصابيح الأمامية لسيارة، أو ماكينة إضاءة السينما وجعل كل التفاصيل واضحة؛ لتظهر الأرض محببة، كثيرة الشقوق وبارزة. كان معلقًا بجذور الشجر البارزة من الأرض في بعض الأماكن كتل من الطين وبعض الطحالب، التي اختفت من عليها الآن لأول مرة في اليوم قطرات الندى الصباحية بفعل أشعة الشمس التي وصلت إلى الجذور. (كان هناك الكثير من الندى في السهوب ملتصقًا بالتأكد فقط بريش الطيور والأماكن القليلة التي بها طحالب، لكن الندى كان مركزًا للغاية لدرجة أن الطحالب كان يمكن استخدامها كإسفنج مائي).

الشيء الوحيد الذي صرفه عن المشاهدة في البداية كانت فوارغ طلقات الصيد المغطاة بشبك العنكبوت حتى في داخلها. لا بد أنها موجودة في الرمال منذ فترة طويلة، لكنه تركها هناك كما هي كأنها جزء من المكان، ثم ترك نفسه كذلك هناك واستسلم واستلقى على الأرض دون أن يتنفس، فلم يكن يحتاج إلى التنفس لفترة طويلة.

التجويف ذو الإضاءة الصفراء في الأماكن الملبساء والظل الأسود في الأماكن المتشققة والبارزة كان مريحًا لعينيه المرهقتين أكثر من اللون الأخضر. ربما كان هذا التجويف حافة جبل في العصر البدائي، في العالم الآخر أو على الأقل ما قبل التاريخ وهو ممدد الآن أمام هذا الجبل الذي يعود إلى عصور ما قبل التاريخ. والحروب الحالية تحدث بعيدًا على الجانب الآخر من الجبل. انساب الرمل من الطين والانهيارات الرملية تتساقط في اتجاه الوادي. كم يبلغ عمر هذا العالم؟ هل يرجع إلى بداية العالم أم قبل ذلك؟ الكهف الطيني المنحني إلى الداخل بدا أنه لا يضاء وينطفئ بفعل غروب الشمس، بل يضيء إضاءة ذاتية، فهو نفسه مصدر الإشعاع والضوء، فالطين الذي كان يعكس كل درجات اللون الأصفر كان مصدر الضوء. أجدادي الأعزاء، أبي العزيز، أمي العزيزة.

خرجت من فتحة في الطين يعسوب ذات رأس تنين، وهي عبارة عن جرادة تصدر صوت نقيق، كما ظهر بالأعلى على المنحدر صياد معه بندقية وجهها نحو الصيدلي المستلقي على الأرض وجهها، وفي تلك اللحظة ظهر للأسفل في الوادي قرين الصيدلي وأطلق عليه الصياد النار في الحال. وقفزت جرادة خضراء في الهواء وانتقلت من القفز إلى الطيران كما تنجح في هذا أحيانًا فقط في الأحلام. في أثناء القفز فردت الحشرة جناحيها الزرقاوين أسفل الدرع الرمادي، وبدت زرقاء اللون في أثناء الطيران، وأصبح لونها رماديًا مجددًا عند هبوطها على الأرض.

اقتربت من الجانب الآخر للوادي سيارة دفع رباعي من طراز «سانتانا» وكانت مزينة كسيارة زفاف وتوقفت عند الصيدلي. كان يقود السيارة ابن الصيدلي ومعه عروسه، ملكة الحفل الشابة. حنى ابنه رأسه وأخرجها من نافذة السيارة وقال له:

- أنت لم تلفظني يا أبي، أنا الذي هربت منك، لقد تركتك يا أبي إلى الأبد. وأنت كنت تريد هذا أيضًا.

أراد الصيدلي أن يرد على ابنه بشكل مُلح: «لقد حملت على عاتقي ذنبًا كبيرًا لا يمكن التكفير عنه».

لكنه لم يتفوه بكلمة واحدة. لوح له العروسان وواصلتا التحرك بالسيارة ببطء. والآن تحركت من أعلى المنحدر كومة من الكستناء بسرعة، وكانت صلبة مثل الحجر وثقيلة واصطدمت بكل شيء، لكنها لم تصطدم بجمجمته حيث كان يحتاج، ثم اختفى ابنه وربما لا يلتقيان أبدًا بصورة نهائية.

استلقى الصيدلي منهكًا داخل التجويف الذي راقب فيه الآن عظمة الخلق. لقد انتهى وقته. لا مخرج له الآن من هذا الجدار. رأى قوقعة حلزون تبدو فارغة وتتحرك بشكل غريب عند أسفل الجدار الطيني، توقفت ثم تدحرجت من جديد

حتى لاحظ أن دبورًا يقف على مسافة، يصعب أن تميز لونه الأصفر عن لون الطين الأصفر، يندفع نحو قوقعة الحلزون ويدفعها محاولاً أن ينتزع جيف الحلزون. ورأى دبورًا آخر يمسك بنحلة ويتدحرج معها في التراب. حفر الصيدلي في الأرض الطينية وهو مستلقيًا ليخرج الفطر البارز الذي بدا له ثقيلًا حين أراد أن ينتزعه وصار أثقل وأثقل، وعندما أراد الصيدلي أن يرفعه بكلتا يديه، جذبته الفطر إلى أسفل، إلى التربة التي كانت مجوفة تحته، إلى السواد المتزايد الذي لا نهاية له.

والآن تدفق عرق الموت من مسام جسده. هل يوجد حقًا عرق للموت؟ نعم، كان عرق الموت أكثر لزوجة من العرق العادي، ويتدفق من كل المسام كالماء الذي لا يسمح بمرور الهواء من العالم الخارجي إلى الجلد.

ظهر الآن ظل على الجدار الطيني المضيء، ظل غير واضح، لكنه ظل شخص وقف خلفه دون عجلة وبحدز، واستقر عند ظهره، ظل امرأة، أجمل ظل قابله. لم ير من قبل ظل ودود بهذا القدر.

وقال له ظل المرأة الآن ما يلي: «توقف عن البحث عن الحياة هنا بين الأموات. عليك أن تتخلص من فقدانك القدرة على الكلام. وإلا ستلقى حتفك اليوم بسبب عدم الكلام. إن عدم كلامك ليس نوعًا من الصمت. بالفعل جعل عدم كلامك العالم في البداية يبدو لك أكبر ولفترة طويلة، لكن كلما بقيت بمفردك بهذا الشكل لمدة أطول، تحول عدم الكلام إلى خطر، ليصبح في النهاية خطرًا على حياتك. إن عدم كلامك المستمر لن يحطم فقط الحاضر الذي تعيشه في الوقت الحالي، بل سيدمر كذلك بأثر رجعي تجربتك بأكملها بما فيها من رموز.. حتى طفولتك. إن عدم الكلام يبطل ذاكرتك ويدمرها، والتي من دونها لا يمكنك أن تبحث عن شيء في العالم، ويجعلك بلا أثر. لقد وصلت إلى حدود العالم يا صديقي. وأنت في خطر أن تتجاوز حدود العالم؛ لهذا يجب عليك أن تبدأ الكلام من جديد، وأن تجد العبارات وأن تكوّن جملاً وأن تتحدث بصوت مرتفع، على الأقل مع التنغيم. حتى وإن كان كلامك خاطئ أو أبله، المهم أن تفتح فمك من جديد. أنا بحاجة إلى مساعدتك مساء اليوم هناك بالأسفل في مدينة سرقسطة. نعم، ما سمعته صحيحًا.. أنا بحاجة إلى مساعدتك، لكن لكي تتمكن من مساعدتي، يجب عليك أولاً أن تفتح فمك من جديد».

تلقى الصيدلي ضربة على مؤخرة رأسه، لكن الضربة هذه المرة كانت أكثر رقة. واختفى ظل المرأة. وحين التفت الصيدلي، لم يكن هناك أحد. الآن يجب أن أغادر السهوب. وفجأة أسرع الصيدلي الخطى. هل أسرع الخطى؟ نعم، لقد فعل ما لم يفعله من قبل؛ لقد ركض.

كان يتجه إلى الأسفل باستمرار. وفي تلك الأثناء قفز أيضًا دون أن يتوقف. حتى حين رأى شيئًا كان قد فقدته منذ فترة طويلة، انحنى ليلتقطه في أثناء

الجري وواصل الجري في الحال (في أثناء الجري فقد الصيدلي الشيء الذي لم يذكر ماهيته في مكان آخر، من جديد يلعب دور الغراب كناقل للأشياء).

في أثناء الجري أصبح إدراكه لكل شيء حوله أكثر حدة. فرأى السحالي القصيرة ذات الأصابع الصغيرة بلا ذيل، تزحف بسرعة نحو الشقوق الصخرية. والثعبان الوحيد الذي قابله الصيدلي في أثناء فترة وجوده في السهوب طويل، سميك بحجم الذراع ولونه أسود مع مسحة رمادية. اندفع الثعبان نحو جذع شجرة صنوبر أسود اللون فيه مسحة رمادية كذلك محدثًا صوت خشخشة، وظل معلقًا بالأعلى في هدوء تمامًا كما يظهر في شعارات الصيدليات. وقد التقت نظراتهما، نظرة الرجل من ناحية ونظرة الثعبان المتدلي هناك بالأعلى، وكانت نظراتهما متطابقة.. جامدة.

وفراشات المساء تحلق بعيدًا عن السهوب الرمادية، ولونها رمادي مثل السهوب، لكن حين فردت فراشة جناحيها ذات مرة، كانا شفافين، ومرسوم من الداخل قمر ونجوم ودوائر الكواكب، ويشبهان النوافذ الزجاجية، ليست تلك التي من القرون الوسطى، بل النوافذ الزجاجية من العصر الحديث. علاوة على هذا، انتشرت في الهواء أصوات إشارات كونية تأتي من شقوق وثقوب صغيرة في الأرض؛ صيحات الضفادع، ونقيق الصراصير، وبعض فئران الحقول تتحرك في خطوط متعرجة. ولاحظ الصيدلي كيف افتقد تلك الفئران. لا مجال للعودة. «الأفضل أن يموت على أن يعود».

أحد أول علامات وصوله إلى المدينة كانت رؤية بعض راكبي الدراجات ذات العجلة الواحدة الذين يندفعون إلى أسفل التل وفرامل الدراجة تصدر صريرًا مرتفعًا. قال الصيدلي:

- لقد ضربتهم بالعصا التي كانت معي في أثناء مروري بهم فقتلتهم. ومنذ تلك اللحظة والسهوب دون وباء واسع الانتشار إلى حد ما. علامة أخرى على الوصول إلى المدينة؛ الأشياء الصغيرة والكبيرة التي وجدها والتقطها من الأرض في أثناء سيره، وألقاها بعيدًا قدر الإمكان؛ في البداية أحجار وعصيان خشبية فقط، ثم فيما بعد زجاجات فارغة، وعلب طعام صفيح، وبطاريات وطوب.

أمام حافة التل الأخيرة التي توجد خلفها المدينة وتبدو مخفية أسفل الجبل، سمع من بعيد أغنية ترددها آلاف الأصوات، ترتيل كنسي يبدو أنه يأتي من دير أثري. لقد كانت أصوات السيارات التي تمر مسرعة، الواحدة خلف الأخرى على الطريق السريع بعد نهاية الدوام.

أول شيء رآه من المدينة كان مدرج المطار الموجود بالأسفل تحت قدميه وأضواء الهبوط منيرة، وفي السماء طائرة ركاب يومض ضوءها وينير المكان. كان الصيدلي يقف هناك في مواجهة الطائرة، وعلى الارتفاع نفسه معها، في وسط حشائش السهوب المرتفعة وفي يده حبة بطاطس التقطها من مكان ما

في السهوب، وفي ظهره القمر المعتم يزداد حجمه فوق المكان الخالي من البشر، وأمامه يمينًا ويسارًا الطريق السريع ويقطعه خط السكة الحديد. ها هو يعود إلى العالم المُحاصر.

على كل حال، هو لم يكن يدور طوال الوقت في دوائر، لأن المدينة كانت مختلفة تمامًا عن نقطة انطلاقه من «سانتا فيه»؛ فقد كانت تقع في السهوب التي ترسم حدود إسبانيا بأكملها، لكن في الأرض المنخفضة، حيث تحولت السهوب العشبية هناك إلى سافانا عشبية وسافانا البنجر، الوضع هناك على ما يرام، لا مزيد من ضغط الرأس. عند وصوله إلى أسفل تفتحت أذنه المسدودة. وعلى الرغم من أن تلك المدينة كانت فقط عاصمة المقاطعة، كان يمكن لعشرة مدن مثل «سانتا فيه» أو مدن الرياح الليلية أن تجد مكانًا فيها، وأطلق عليها اسم «سرقسطة»، هل هذا مجرد تطابق أسماء؟ لا، إنها «سرقسطة» الحقيقية، الواقعة على نهر «إيبرو» في الأراضي المنخفضة.

يجب عليه الآن أن يعبر مدينة «سرقسطة» الكبيرة بأكملها حتى يصل إلى مخرج المدينة الشمالي. وكان قد سار لفترة طويلة على قدميه، لدرجة أنه أراد أن يكمل الطريق بهذا الشكل حتى النهاية، في خط مستقيم.

لم تكن المسافات البعيدة تمثل له مشكلة، بل العوائق الموجودة في كل مكان. وهكذا واجهته مغامرة أخرى، ألا وهي الخروج من السهوب الواسعة إلى العالم المحاصر سيرًا على الأقدام، هذه من الممكن أن تكون مغامرة أكثر خطورة حين يكتشف المكان هناك.

علاوة على ذلك، عقد الصيدلي رهانًا مع نفسه بأن يسير على أرض السهوب بقدر الإمكان حتى يصل إلى وجهته، حتى في طريقه عبر المدينة، وتحديدًا في إسبانيا لم يكن الرهان مستبعدًا وفقًا لخبرته. لكن السهوب كانت موجودة في تلك المناطق الواقعة بين خطوط المواصلات. وهكذا تسلق الصيدلي حاجز الطريق السريع وانتظر تلك اللحظة الفريدة بعد مئات اللحظات، التي يستطيع فيها أن يقفز ويجري إلى الناحية الأخرى من الطريق، وعبر كذلك جسر السكة الحديد، وكان عليه أن يتجاوز المنحنى التالي على الطريق السريع، ثم مدرج الطائرات، وخط السكة الحديد الإقليمي، ودائمًا يسير على الحشائش الصلبة، التي كانت خالية تقريبًا، وضيقة ومدببة وصغيرة، حتى وصل إلى داخل المدينة وأوشك على أن يخرج منها.

قال لي الصيدلي:

- لا أريد أن أسرد المزيد من التفاصيل هنا، لكن إذا كنت تريد أن تكتب كتاب مغامرات، عندئذ يمكن أن تكتب عن رحلتي سيرًا على الأقدام بالخارج من الأرض الخالية وصولًا إلى المدن الكبرى.

وفيما يخص مغامرته الخاصة فقد ذكر فقط الحيوانات الكثيرة التي قابلها في أثناء عبور المنطقة الواقعة بين خطوط المواصلات. كلما كانت تلك المنطقة ضيقة وكثيفة ومحاطة بالمرافق المرورية، كانت الحيوانات أكثر ومتعددة الأنواع ومتنوعة. لقد صادف حيوانات أكبر في الحجم كان يفتقد وجودها في السهوب، هناك على تلك الجزر الصغيرة المغطاة بحشائش السافانا، التي تنكمش في اتجاه وسط المدينة، وكانت محاصرة مثل القفص، وعادة ما كانت على شكل مثلث مديب، ويقل حجمها بمرور الوقت لتتحول في النهاية إلى مجرد خط. هناك - وليس في أي مكان بالخارج في السهوب - تجلس الأرناب البرية بأعداد كبيرة ويقف بجانبها دون وجل ثعلب أمام منزله، وكذلك عرسة بيضاء، كأنهم كانوا يعرفون جميعًا أنهم في مخابئهم العشبية المحاطة والمعزولة بعيدين عن الأنظار، حتى لو من الطائرات.

على الرغم من أنه شاهد وسط مدينة «سرقسطة» بشكل عابر فقط، فقد أدرك أن هناك عيد على ما يبدو، كما حدث آنذاك عند وصوله إلى مدينة الرياح الليلية. فقد كانت أبواب الكنائس الكثيرة مفتوحة عن آخرها، والكنائس مضاءة من الداخل، على النقيض من كل المحلات المغلقة (ومن بينها كذلك الصيدليات بشكل لافت للنظر - فقد بحث نظره عنها - حيث أغلقت جميع الأبواب والنوافذ الحديدية هنا في المدينة الكبيرة، وهذا يختلف عما حدث في مدينة «سانتا فيه» من قبل).

نعم، لقد كان العيد السنوي للقديسة الحامية لمدينة «سرقسطة».. «سيدة العمود». وفقًا لذلك لا بد أنهم في منتصف شهر أكتوبر. هل ظل بعيدًا عن الوطن لفترة طويلة؟

أسرع الصيدلي من خطاه، كأنه يستطيع بهذا أن يعوض الوقت. وتجاهل العيد. فجأة جاء الآن من شارع جانبي صوت صفير الناي «الفلوت» الصلب صاخبًا بين منازل المدينة أكثر مما كان عليه في السهوب، وارتفع فوق أسطح المنازل، تسلسل النغمات نفسه يتكرر على بعد بضعة خطوات من العربات الخشبية للباعة الجائلين، أكثر حدة وصخبًا وفي الوقت نفسه - لأن البائع المتجول كان يريد في النهاية أن يقوم بعمله في يوم العيد - بلباقة ومحافضة على الشكليات. بالنسبة للبائع المتجول لم تكن الموسيقى هي الأهم، بل الهتاف وعرض البضائع. إلا أن ضجة العيد كانت تطغى على كل هذا.

قام البائع المتجول بالرحلة نفسها مثل الصيدلي، عبر مقاطعة، ثم مقاطعة ثانية ومقاطعة أخرى، والآن وصل كلاهما في اللحظة نفسها إلى المدينة الكبيرة، بعد كل تلك الأسابيع من الترحال كل على طريقته.

استمر صوت صفير «الفلوت» في حارة صغيرة بعيدة موازية، ودائمًا على الارتفاع نفسه مع الصيدلي في اتجاه نهر «إيبرو». ولأول مرة في قصته، ولأول

مرة منذ فترة طويلة اغرورقت عيناه بالدموع. وفي الوقت نفسه أراد أن يذهب في الحال إلى البائع المتجول ليشتري شيئًا.

لكنهما التقيا بعد ذلك على جسر الحجر فوق نهر «إيبرو» وسن له البائع المتجول سكينه.

في تلك الأثناء حل الليل وبدا أن مدينة «سرقسطة» مدينة رياح ليلية مثل مدينة «سانتا فيه». ذهب الصيدلي إلى مواعده. وبدلاً من الذهاب إلى قصر «ملوك نافارا»، ذهب إلى محطة حافلات في منطقة تقع على أطراف المدينة شمال نهر «إيبرو».

وعلى الرغم من أنه لم يكن يشعر بالتعب، التوت قدمه في تلك الأثناء. كانت محطة الحافلات عبارة عن بناء ممتد ذو سقف، ودون حوائط في نهاية طريق رئيس سريع يحده من ناحية مجمعات سكنية، ومن ناحية أخرى بداية السهوب. كان سقف محطة الحافلات مستندًا على عدد كبير من الأعمدة الخرسانية المستديرة السمكية التي يمثل كل منها نقطة مغادرة إلى الوجهات المختلفة، إلى «هويسكا»، «لارده»، «تطيلة»، وإلى أماكن أبعد خلف جبال «البرانس». كانت الأعمدة محاطة من الأسفل بقواعد. وعلى الرغم من وجود كابينه انتظار مغطاة بألواح زجاجية وذات إضاءة جيدة في الظلام، فإن الركاب كانوا يجلسون على قواعد الأعمدة - كان حدث الأعمدة هنا يختلف عن العيد في وسط المدينة - غالبًا ما كان يجلس على كل قاعدة من القواعد التي يزيد عددها عن عشرين قاعدة - شخص واحد فقط. وكان هناك عدد غير قليل من المسافرين واقفين متكئين بظهورهم على الأعمدة الخرسانية.

جلس الصيدلي على القاعدة الأقرب إلى الطريق السريع، حيث كان تيار هواء الشاحنات المارة على الطريق يندفع نحوه بقوة. والحافلات التي كانت تدخل المحطة انكمشت بفعل الأعمدة إلى مركبات صغيرة، ثم تظهر من جديد كحافلات ضخمة عند مغادرة المحطة. وبدت المجمعات السكنية الموجودة على الطريق السريع خالية من السكان. فقد كان الاحتفال بالعيد قاصرًا على أحياء محددة بالمدينة بحيث بدت باقي الأحياء مهجورة. كان هناك مخلفات بلاستيكية تطير في اتجاه المدينة. كرات من الشوك مع الأعشاب الشوكية المعتادة في السهوب تندرج بسرعة إلى داخل المدينة، وتقفز أحيانًا. هل الوقت لا يمر؟

والآن شعر بيد على كتفه، فيها دفة ورقة لم يشعر بهما من قبل. ثم شعر بيد أخرى على جبهته، ويد ثالثة. شَعَرَ بأيادي كثيرة على جسده، ثم وضعت تلك الأيدي معطف على كتفه، فقد كاد يتجمد من البرد. والآن قالت المرأة التي كانت تتعقبه: «اخلد إلى النوم».

الحافلة التي وقفت أمامه كانت ذات أبواب جرارة مفتوحة حتى يصعد داخلها، لم تكن سيارة دفع رباعي من طراز «سانتانا»، ولم تكن سيارة «سانتانا»

من المرة الماضية التي اقترب طولها من الحافلة، بل كانت حافلة حقيقية لا تختلف في شيء عن الحافلات الموجودة في المحطة، سوى أنه لا يوجد أحد بداخلها سواهما. كانت المرأة تجلس خلف عجلة القيادة، وجلس الصيدلي بجانبها على ذلك المقعد المعزول المخصص للمرشد السياحي، مقعد قابل للدوران، ومنخفض عن مقعدها.

جلس الصيدلي هناك وظهره لاتجاه السير طوال الوقت الذي قضياه معًا في الطريق. في الليل كان ينظر إلى صفوف المقاعد الفارغة، وفي النهار كان ينظر إلى المناطق التي تتحرك إلى الخلف وتظهر في مجال رؤيته، ولم يرها من قبل بسبب طريقته في الجلوس.. رآها فقط حين أصبحت الحافلة على مستوى ارتفاعها نفسه، بحيث يستطيع التحقق من تفاصيلها بصورة أفضل، فقد كانت تظهر في البداية كبيرة وتصغر تدريجيًا فيما بعد. هل كان اتخاذه لهذا الوضع - عكس اتجاه السير - أمرًا يتعلق بالكبر في العمر؟

قال لي الصيدلي:

- على كل حال لقد نويت أن أسافر مرة أخرى عبر القارات جالسًا بقدر الإمكان عكس اتجاه السير، لكن بجانب النافذة.

إلا أنهما لم يتحركا بالحافلة. جلست السيدة في البداية بجانبه على قاعدة العمود بمحطة الحافلات بمدينة «سرقسطة» وقالت: «ماذا إدا؟».

بدا له أنه يراها لأول مرة من الأمام. إنها جميلة. وقد كان هذا أمر نادرًا للغاية، ليس فقط في الفترة التي كانت تدور فيها أحداث القصة. استمعت له وهو يقضم عيش الغراب الأكثر مرارة الذي وجدته في السهوب، وانتشرت المرارة من منتصف لسانه إلى الأعلى حتى شعر رأسه، وإلى الأسفل حتى أطراف أصابع قدميه. وأخيرًا بذل مجهودًا ودفع شفثيه بعيدًا عن بعضهما وللمرة الأولى منذ فترة طويلة خرج صوت من فمه وبدا أنها تسحب الكلام من فمه. تصبب الصيدلي عرقًا، لكنه هذه المرة مختلف عن عرق الموت. ضحكت المرأة. هل تسخر منه؟ بدأ قلبه ينزف. هل هذا يحدث بالفعل؟ نعم، هذا يحدث. أخيرًا نزف قلبه واستطاع أن يتحدث من جديد. في البداية صرخ في المرأة قائلاً: «ماذا تريد مني؟ أخبريني، ماذا تريد مني؟»

مع استعادته القدرة على الكلام مجددًا أو في اللحظة التي سبقت ذلك أصابه سهم الحب ورافقته فكرة «متأخر للغاية. متأخر جدًا»، ثم قال ما يلي:

- هراء.. هذا يحدث مجددًا. هذا يحدث مرة ثانية. حسنًا. ماذا إدا؟ هراء.. لم يحدث منذ فترة. متى كان هذا؟ ذات مرة، كان أحدهم يعاملني بشكل جيد. لم يكن شخصًا واحدًا فقط. ولم تكن مرة واحدة. هراء.. وماذا عني؟ أشعر بإحساس جيد للحظة، ثم أنسى الموضوع. أشعر بإحساس جيد، ثم أعود وحيدًا

مرة ثانية. لا أتحدث من أجل شخص. هراء.. لمن أعيش؟ من أجل الأشخاص النبلاء. الأشخاص النبلاء الكثير. من الذي أنقذ هؤلاء النبلاء؟ من حصل لهم على حقوقهم؟ شيء ما أيقظهم من بين الموتى. نصب تذكاري للبائع المتجول في السهوب. هراء.. كم كنت سعيدًا ذات مرة لأن لدي أطفالًا! وكانوا يقصدونني، كذلك زوجتي كانت طفلي، وأمي أيضًا كانت طفلي، وأبي كان طفلي العزيز، وجددي كان صبيًا صغيرًا غريبًا. هراء.. كل شيء سيكون على ما يرام من جديد. لم يكن كل شيء على ما يرام أبدًا. اليوم الوضع أفضل. لماذا يأتي عيد صعود يسوع في عام قبل عيد ميلاده؟ «لم أعد أعرف». لقد كانت هذه العبارة السائدة لأم والدي. أم لأم والدي. «لم أعد أعرف». والطريقة التي تقول بها هذه العبارة جعلتها من أجمل العبارات التي سمعتها. «لم أعد أعرف». جميع أبنائها فقدوا في الحرب باستثناء واحد، مات في هدوء بسبب السرطان. هراء.. لقد مر وقت طويل على وقوفي على الجسر الحجري فوق نهر «إيرو». وإذا لم أعد قريبًا إلى المنزل، فإني لن أعود إليه أبدًا.

سقط الصيدلي والمرأة في عناق، أو أمسكت به المرأة. ولأنه كان ثقيلًا، صدر صوت طقطقة قوي، لكنهما لم ينطلقا بالحافلة بعد. وتناولوا القهوة في بار بمحطة الحافلات - لم تكن قهوة «جامايكا بلو ماوتن» - وشربا في كأس بدلًا من الفنجان. هناك في البار، أزال البطللة الرياضية ريشة من شعر الصيدلي - لم تكن ريشة نسر السهوب - وقلمت أطراف أصابع يديه - لم يراقبهما أحد -، ونزعت عنه حذاءه المعكوس - كيف استطاع أن يسير كل هذه المسافة وهو مرتد الحذاء معكوسًا؟ - ألبسته الحذاء بشكل صحيح وأعطته ملابس ارتداها في حمام البار.

هل هذه البدلة تخص زوجها المتوفى؟ لم تقل شيئًا، لم تتفوه بكلمة. تحدثت مرة واحدة فقط في الحافلة قبل التحرك «في ملاحم العصور الوسطى توجد الحالة التي يحب فيها رجل امرأة على نحو زائف، ويتزوجها ظلمًا وعن طريق شراب سحري يتخيل أنه يمتلكها كل ليلة، ويستمر هذا الوضع طوال حياته. وفي يومنا هذا ينشأ هذا التخيل دون شراب سحري، وهذا يحدث منذ فترة طويلة. والرجل الذي كنت معه تخيل فقط أنه كان معي. وكم كان هذا التخيل فقط مهينًا! ولهذا بعد وفاته مباشرة نقلت أشياءه خارج منزلي. وجعلته يدرك قبل وفاته أن ما بيننا كان مجرد وهم. وقبل وفاة زوجي بفترة طويلة كان الأمر محسومًا. إذا وقعت في حب شخص مرة أخرى، فإن أول شيء سأفعله هو أن أضربه من أول نظرة».

أحضرت المرأة الصيدلي إلى منزله، لكنها لم تسلك الطريق المباشر. ولم يخبرني الصيدلي أين انحرفا عن الطريق، ولم أزد أن أعرف على الإطلاق.

ما الذي عايشاه معًا؟ حكى الصيدلي لي فقط عما سمعاه ورأياه معًا. لكن ما شماه واستنشقه لم يكن موضوعًا للحكي.

- قبل أن نصل مدينة «بامبلونا» رأينا أول قطرات الثلج المتساقطة على جبال «البرانس». في بلدة «بياريتز» أنصتنا بالقرب من صخور المنارة إلى البحر الذي كان هائجًا وأمواجه في جميع الجوانب لدرجة أننا اعتقدنا أننا نقف على حافة جزيرة صغيرة من الشعاب المرجانية بعيدًا في المحيط. وحين اقتربنا من مدينة «تولوز» وجلسنا في قرية بين نهر «الجارون» و«قناة دو ميدي»، جاء طفل وأحضر لنا أشياء طوال فترة بعد الظهر؛ تفاح، وأحجار، وريش، وشرائط كاسيت ممزقة، وضمادات مرنة، وعنب، وسمكتين صغيرتين، وخلد ميت، وفي النهاية رسمة لنا نحن الاثنين على ما يبدو. وفي الملاحظات الموجودة بالقرب من مدينة «ناربون» سعدنا جبل الملح، وجلسنا بالأعلى ونظرنا إلى وسط البلد الحجري الخالي، وصوت احتكاك بلورات الملح يزداد قوة. وفي يوم آخر من رحلتنا نحو الشمال سمعنا في مكان ما في غابة نفضية صوت صرير مثل صوت فرامل الدراجة ذات العجلة الواحدة، بالأعلى فوق رأسينا، ورأينا فرع شجرة يقع على فرع بالشجرة المجاورة ويحتكان ويهتزان في الهواء ويصدر عنهما صوت صرير وصوت أنين وتنهد. وفي اليوم التالي، شاهدنا لمدة ساعة قط وقطعة يمارسان لعبة الحب. واجتازنا حدود الأنهار، وسلاسل الجبال، والمناطق المناخية وتوقفنا عند ممر غير مستخدم في جبال الألب ونظرنا عبر نوافذ الحافلة المقوسة التي تقوم بتكبير المنظر على الطبيعة الجبلية ناصعة البياض المغطاة بالجليد، دون حواف وجدران صخرية، الممتدة أسفل السماء الزرقاء والشمس الهادئة الدافئة. وفي أحواض تلك الطبيعة الجبلية ومنحنياتها - توجد في قاع الجليد علامات المجاري والتيارات المتعرجة لجداول مائية صغيرة - بريق زائد للشمس كان يطلق عليه في السابق «لمعان». وهناك حيث كان يتدفق نهران في عمق الجليد، في المنخفض الواسع، الضبابي بفعل الجليد كان يوجد موضع الظل الوحيد الصغير في وسط المنحنى الأبيض، وكان يتخلله البريق بحيث يبدو المكان دافئًا أكثر من أي مكان آخر. لم نكن نساfer بالحافلة وتوقف فقط، بل كنا نسير معًا في تلك الأثناء عبر المدن، وأظن أن من يرانا ونحن نسير بهذه الطريقة، حتى الشخص الذي توقف منذ فترة طويلة عن الحلم بالرجل والمرأة، قد تعلق قلبه عند رؤيتنا على الأقل للحظة واحدة من بعيد.

وفي إحدى تلك الطرق في أثناء رحلة العودة إلى المنزل، قالت المرأة للصيدلي إحدى تلك الجمل القليلة: «لقد جذبتني إليك في الضراء والسراء، لأنني سمعت عنك ذات مرة أنك الرجل الوحيد بين جبل «أونتيرسيبرج» وبساتين «بينديس» الذي يبدو أن لديه قصة ليحكها، حتى لو كانت أكثر حزنًا من قصة هروب «إينياس» من طروادة المحترقة». وفي مرة ثانية كانا يسيرا فيها معًا

قالت المرأة للصيدلي: «لقد استلقيت فترة طويلة في الكوخ الخشبي الموجود على حافة السهوب حتى صرت نقية من جديد».

هل يحدث هذا؟ هل يمكن أن يجد الشخص النقاء من جديد؟ وماذا بعد؟

في مساء أحد أيام الخريف وصل الصيدلي والمرأة إلى منطقة بالقرب من مدينة «سالزبورج». أوقفت المرأة الحافلة أمام المطار وسارا في طريق زراعي ناحية الغرب في الاتجاه الذي يوجد فيه منزله. رأيا كل صورة بحدة وسمعا كل صوت كنغمة وداع. وفجأة انتابه خوف من حياته القادمة، أو من أيامه القادمة، أو فقط من اليوم التالي من دونها.

قال لها:

- ابقِ معي.

فقالت له:

- لا، ألا تعرف أن الوقت متأخر للغاية بالنسبة لنا نحن الاثنين، ربما لا يكون متأخرًا لاثنين غيرنا.

وقال لها الصيدلي:

- لكنك طلبتي مني المساعدة.

فأجابت:

- لقد ساعدتني بالفعل.

وعادت المرأة إلى الحافلة، وواصل الصيدلي الطريق إلى منزله. لكن في لحظة الوداع بدا أن كليهما مثل أزهار متفتحة.

المحل الوحيد في شارع السكني المطل على سد النهر الحدودي كان مغلقًا، ونافذة العرض كانت مضاءة. كيف؟ كان يُعرض فيها «تقويم المجيء». وعلى الجانب الآخر في «سرقسطة» كان بائعو اليانصيب يقفون على نواصي الشوارع ويهتفون «يانصيب أعياد الميلاد». تطايرت أوراق الخريف الكبيرة في المحل. صعد الصيدلي على السد ليلقي نظرة على نهر «سالاتش» الحدودي. ماذا يفعل النهر؟ إنه يتدفق. وقبل أن يصل الصيدلي إلى منزله، لاحظ أنه يمسك بالمفتاح في يده منذ فترة دون وعي.

كان المنزل مظلمًا. لم يدخل الصيدلي المنزل على الرغم من العاصفة والأمطار. جاء طفل من أبناء الجيران في الشارع الخالي وقال في أثناء مروره بالصيدلي:

- أنا أعرفك. أنت تسكن هنا. هذا منزلك. أنت صيدلي «تاكسهام».

تحدث الطفل بود. كانت سيارته تقف أمام المنزل، والمحرك يصدر صوت طقطقة كأنه أطفئ للتو.

قبل ذلك، تجوّل الصيدلي في الحديقة. كانت كل الفاكهة قد جُمعت. لم يجد سوى بعض الثمار فقط على شجرة التين. وضع الصيدلي ثمرة تين في فمه في أثناء مروره. هل تنمو شجرتان ذات ثمار ناضجة في الشمال؟ نعم، في تلك الأثناء كان كل شيء في كل مكان.

تحرك وهو مغمض العينين، كأن أحدهم يأخذ بيده. فتح عينيه. أسفل شجرة الأرز أضاء في الظلام ثلاثة، تسعة، خمسة عشر، سبع وعشرين فطر مظلة، لا بل ثماني وعشرين فطر مظلة يصل ارتفاعه إلى الركبة وتتساقط منها جميعًا قطرات الأمطار. «سترككم في الوقت الحالي في مكانكم».. (قالها بصيغة الجمع).

أمام باب المنزل، تعثر الصيدلي في شيء غير معتاد؛ جذر شجرة اخترق الأرض وانحنى أمام مدخل المنزل. عند فتح الباب بالأعلى سمع في الجزء الخاص بزوجته صوت قعقة شيء ارتطم بالأرض، شيء خفيف وصغير. بناء على ذلك فإن زوجته قد خرجت كالمعتاد، لكنها عادت من الرحلة وما زالت تسكن في الجزء الخاص بها بالمنزل والمنفصل عن الجزء الخاص به. كانت أغراضها تدل على ذلك، في ترتيبها الهش بحيث يكفي تيار هواء ضعيف ليسقطها من مكانها.

قال لي صيدلي «تاكسهام»:

- لم يكن الفطر بالتأكيد هو سبب انفصالنا. لا بد أنني جرحتها بشدة ذات مرة، لا أعرف متي وكيف، لدرجة أنها لم تعد قادرة على الحياة معي، لكنها أيضًا لم تستطع أن تترك المنزل. ويبدو لي أننا لسنا الوحيدين اللذين نعيش على هذه الشاكلة.

في الجزء الخاص به بالمنزل كان كل شيء في مكانه كما تركه. والبريد الوحيد الذي وصله كان عبارة عن بطاقات بريدية أرسلتها ابنته من الجزيرة التي قضت فيها الإجازة، والتي عادت منها في تلك الأثناء إلى الصيدلية، التي قد تصبح في يوم ما ملكًا لها. «أبي العزيز» كلمتان تركتا أثرًا طيبًا فيه. وبالإضافة إلى ذلك، تحليل للقرحة الصغيرة بجهته التي استأصلت في الصيف.

- وماذا أيضًا؟

لم يقل لي شيئًا.

جلس الصيدلي في الظلام في مواجهة الحائط الأبيض الخالي الذي تتحرك عليه ظلال أشجار الحديقة في ضوء مصابيح الشارع بشدة بفعل العاصفة؛ مثل حيوانات تتقدم وتتراجع، في لحظات الهدوء مثل العدائين حين يقفون على خط

البداية، ثم ينطلقون بسرعة البرق. أغلق الصيدلي عينيه وظهرت وراء جفنيه أرض السهوب اللامعة في كل مكان. وامتلاً المنزل تدريجياً بموتاه. سألته:

- هل كان ابنك معهم مرة أخرى؟

أجاب:

- لا، هذه المرة لم يكن ابني من بينهم.

أصاب ساطور رقبتة، واصطدمت رأسه بشدة ب صدره. هل هو الإعدام؟ لا، لقد غلبه النعاس فقط. لكن رأسه سقطت بقوة إلى الأمام، لدرجة أن عنقه كاد أن ينكسر وهو جالس في هدوء. أصابه الذهول من الموقف. إلى الفراش. لا، لم يحن موعد النوم بعد.

ذهب إلى القبو، وهو مكان في المنزل كان دائماً ما يتجنبه. لكنه اليوم رأى نفسه هناك تحت الأرض. لم يكن القبو ممتلئاً بهؤلاء الدخلاء الغرباء الذين حلم بهم ذات مرة، بل كان خالياً وهادئاً.

صعد إلى أعلى ليقراً، أضواء ضوء القراءة. نظر إلى رباط الحذاء، فقد كان لافتاً للنظر بسبب شيء أصفر بارز شبك فيه جذع من حشائش السهوب. فتح الملحمة الشعرية «إيفان فارس الأسد» - «Yvain, the Knight of the Lion». ظل يتساءل عن الموضوع الذي توقف فيه عن القراءة آنذاك. توقف فجأة عن القراءة لدرجة أنه نسي أن يضع إشارة حيث توقف.

أخيراً، وجد الموضوع الذي توقف عنده وواصل القراءة، لكن فجأة تمهل في القراءة وبدأ يرتجف. إنه يرتجف الآن.



الخاتمة



لقد التقيت بالصيدلي في منتصف فصل الشتاء في أثناء عمله الليلي في صيدليته بمدينة «تاكسهام»، ذلك الخندق المسطح فوق قطعة من العشب في وسط المكان والمحيط به مجمعات سكنية متفرقة.

وقد حكى لي قصته الصيفية حتى تجاوزنا منتصف الليل بكثير مع التوقف بضع مرات. في أحد المرات جاءت امرأة عجوز لتشتري مسحوقًا لآلام الصدر لا يستطيع أحد غيره تحضيره. وفي المرة الثانية التي دق فيها باب الصيدلية كانت بعد منتصف الليل، أحضر أب شاب طفله الذي وقع من فوق الفراش، واصطدمت رأسه بالأرض ونزفت، وقام الصيدلي وهو مُرْتَدِّ البالطو الأبيض بتطهير الجرح ووضع لاصق طبي عليه. وفي وقت متأخر من الليل قفز الصيدلي من مكانه على الفور عند سماعه صرخة استغاثة من الجوار. كان مصدر الصرخة فيلم بعد منتصف الليل في التليفزيون. ومرة أخرى دوت من الخارج صرخة عالية مثل عواء كلب صدمته سيارة، واستمر الصوت بقوة داخل المعمل، رجل لا يستطيع تقدير عمره، بدا أن الألم يعتصره، أو ربما الحزن والتعاسة، ولا يستطيع أن يبوح بشيء سوى هذه الصرخة الممتزجة ببعض المقاطع غير المفهومة تمامًا، وأطلق تلك الصرخات لفترة من الوقت في يأس في اتجاه الصيدلي وهو يفتح عينيه عن آخرهما، وجهاً لوجه وفجأة صمت من جديد واختفى في اتجاه الظلام.

والجدير بالملاحظة في كل ما سبق - سواء عند تحضير المسحوق أو العناية بالجروح - أن الصيدلي يعمل بيديه في مساحة صغيرة للغاية، وعلاوة على ذلك لا يصدر صوتًا، هل تغيرت طريقته في العمل؟ وكان يقدم من الأدوية أصغر الوحدات فقط، أصغر العلب، أو قطع مفردة فقط، والمساحيق والشراب يكيلها

بالمعلقة، ولهذا كان يضع معالق جاهزة في أكواب الماء مثل معالق الضيافة، لكنها كانت تستعمل للأدوية بدلاً من العسل.

جعلتني مراقبته يعمل أشعر بالدفع. حتى حين يبقى بمفرده في العمل، فإنك تشعر أنه يفعل هذا لشخص آخر، لأشخاص آخرين. هؤلاء الأشخاص الآخرون الغائبون كانوا جميعاً أقاربه. إلا أنه ذات مرة جاء شخص في ظلام الليل وركض نحوه الصيدلي من بعيد وأدار ذراعه وراء ظهره ودفعه بعيداً بقوة دون أن يتفوه بكلمة، وفي تلك الأثناء لوح الشخص بورقة في يده تشبه الروشنة العادية.

في وقت ما قبل الفجر بفترة طويلة، انتهى الصيدلي من سرد قصته وأعد لنا قهوة «جامايكا بلو ماونت» التي حين استنشقتها شعرت بإحساس مختلف.

ثم خرجنا إلى الخلاء، على الأرض العشبية ذات شجيرات الورد التي كان يوجد في أعلى كل منها وردة، وعلى الأرض أسفلها بعض ثمار الفراولة ذات اللون الأحمر الشاحب، لكنها صالحة للأكل. بدّل الصيدلي بالبالتو الأبيض معطفاً، لكنه بدا وكأنه لم يغير معطفه الأبيض، وعندما خطا خارج الصيدلية بدا لي وكأن رائحة الأدوية قد تبخرت مع أول خطوة يخطوها في الهواء الطلق.

أخذت أتأمل من الجانب. لا أعرف لماذا أصبحت - منذ فترة طويلة - متردداً في وصف الأشخاص ووجوههم وأجسادهم، وخاصة بصفات مميزة، وأنزعج دائماً عند قراءة تلك الأوصاف، كأنها لا تنتمي إلى هؤلاء الأشخاص. على الرغم من هذا، حان الآن وقت وصف مظهر الصيدلي على الأقل؛ لم يكن طويل القامة، لكنه في المقابل عريض، ذو أكتاف عريضة، وكان عرضه من النوع الذي يلفت النظر، وأكثر شيء لافت للنظر فيه أنفه، حيث كانت أجنتها دائماً كالخياشيم المنتفخة. وبشرته الداكنة - ليست سمراء - كانت غير مألوفة نوعاً ما. وبسبب لون بشرته - حكى لي الصيدلي - أنه في فترة دراسته الجامعية لعب دوراً في مسرحية كانت معالجة حرة لـ«ملحمة جلجامش في بلاد الرافدين».

- هل كان دور الملك؟

تجاهل الإجابة عن السؤال.

خطر ببالي في هذا الشأن كيف كنت في شبابي أرى بشكل متكرر نجوم السينما آنذاك في أناس كثر بالشوارع، وكيف لم يعد يحدث هذا في تلك الأثناء، باستثناء الآن مع صيدلي «تاكسهام» الذي ذكرني بـ«جاري كوبر» و«بيدرو أرمينداريز» وأبطال آخرين، وذكرني في الوقت ذاته بممثلين كوميديين مثل «ستان لوريل»، «جيرى لويس» و«باستر كيتون» بصفة خاصة، بل إنه ذكرني كذلك بنجمات سينما، هؤلاء المنعزلات على ما يبدو، وذكرني كذلك بنجوم الشر بصفة خاصة مثل «إدوارد جي روبنسون» و«إرنست بورجنين». لم يكن السبب

في ذلك وجود شبه بينه وبينهم، بل ربما بسبب القصة التي سمعتها، وكذلك بسبب طريقته في النظر للأشياء وتعقب الأحداث؛ فكل شيء يبدو أنه يتحرك بالسرعة نفسها بالنسبة لعينيه، فلا يوجد فرق بين السرعة والبطء؛ فالسيارة التي تمر بأقصى سرعة تحظى بالنظرة الهادئة نفسها، التي يحظى بها الدخان المتصاعد من كوب القهوة، لكن ألم يحكي لي شيئاً مختلفاً تمامًا؟ أن السرعة يمكن أن تصيبه بالرعب فقط كمتفرج؟

وسألته ما إذا كانت قصته سبباً في تغييره؟

فأجابني قائلاً:

- لقد أقسمت ذات مرة في تلك الأثناء أنني حين أعود إلى منزلي سأكون شخصاً مختلفاً، لكن الشيء الوحيد الذي يبدو أنه تغير فيّ هو أن قدماي صارتا أكبر من ذي قبل، وكان عليّ أن أشتري حذاءً جديدًا.

وسألته:

- لماذا أصبحت صيدلياً؟

أجاب الصيدلي:

- بسبب الأسرة. فنحن أسرة من الصيادلة. لقد كنا نمتلك شعارًا خاصًا بنا في سلسلة جبال «تاترا» المرتفعة.

ثم سألني بدوره إذا كنت لم أقم بتدوين ملاحظات عن قصد. جاء ردي بالإيجاب.

قال الصيدلي:

- حسنًا. المهم أنك تكتب في ورقة كبيرة كل ما قلته لك للتو. وإلا ذهب كل هذا أدراج الرياح. أريد ما حكيتَه الآن مطبوعًا. أريد قصتي مكتوبة. إن الحديث الشفوي لا يعود بشيء عليّ. أما الكتابة فلها شأن مختلف. وفي النهاية، أريد أيضًا أن أستفيد بشيء من قصتي. عاش الفرق بين الكلام والكتابة. إنه يمثل نصف الحياة. أريد أن أرى قصتي مكتوبة. والقصة نفسها تريد ذلك.

سألته:

- لكن من يفترض أن يحصل على القصة ليقرأها؟ لأن هذا النوع من الحكيم غير منتشر اليوم؛ فالأحداث لا تدور في السوق، ولا في البلاط الملكي، وغير موجه للطبقة البرجوازية، ولا حتى موجه إلى شخص آخر بعينه. إنه موجه فقط للشخص الذي حدثت له هذه القصة.

أجابني الصيدلي:

- ربما يكون هذا تحديدًا هو الحكى الأصلي. ربما بدأ بهذه الطريقة مرة واحدة.

كانت السماء فوق «تاكسهام» سوداء تمامًا دون نجوم، باستثناء لحظة قصيرة ظهر فيها ضوء القمر خلف سحابة كانت على شكل محار. هتف الصيدلي الذي كان يقف بجانبني قائلاً: - إنه الإله «تارسينفيد»!

هبت رياح الليل هنا أيضًا، لم تكن محسوسة في الحقيقة، لكنها مؤثرة. بدا كأن هناك رياحًا أخرى تصاحبها خاصة بنا نحن الاثنين الواقفين في الخلاء، تهب دون قوة. داعبت الرياح شعر مؤخرة رأسينا. سمعنا من خلفنا الآن صوت نقيق صرصور. في منتصف الشتاء؟ نعم، ولم يأتِ الصوت من أسفل، بل من أعلى، من شق في جدار الصيدلية. ورأينا بعيدًا في الظلام سكيرًا يترنج.

قال الصيدلي:

- لا، أنا أعرفه. إنه ليس سكيرًا. لقد هجرته زوجته وأبناؤه. سألقي عليه التحية على الأقل.

وذهب الصيدلي إليه وحيّاه. وفي مكان آخر كانت تسير في الظلام فتاة شابة تحمل على ذراعها طفلًا رضيعًا حديث الولادة.

أخذ الصيدلي مجددًا ببضع خطوات في الظلام. خطوات كما كان يسير في السهوب؟ تشبه خطوات طفل صغير، يسير بخطوات واسعة عريضة حتى لا يقع. والمكان الذي أشار إليه الآن وهو يدير وجهه فوق كتفيه وينظر إليّ، هناك وقعت الحروب في الفترة التي كانت تدور فيها أحداث قصته. وبدا فجأة بالحجر الذي ألقاه بشكل مفاجئ في الظلام كأنه يستطيع ارتكاب فعل عنيف مثل الآخرين. هل حدث تغيير في داخله؟ وعاد إلى الصيدلية ثم خرج مجددًا وفي يده صحيفة مشتعلة ألقاها خلف الحجر.

قال لي الصيدلي لاحقًا حين كنا جالسين على الطاولة الصغيرة في معمله في نهاية الليل: - اتضح لي فيما بعد أنني دائمًا ما كنت أنتظر تلك الضربة التي تلقيتها هناك على أطراف غابة المطار، لكن في بطني بدلًا من على رأسي. حين تأتي إليّ اللحظة التي ضربت فيها ابني، أنصحك أن تكتب أنني تراجع إلى الخلف لأوجه له ضربة، ليس للتهوين من الأمر، بل على العكس، إن التراجع إلى الخلف لتوجيه ضربة إلى الابن، دون أن تضربه، أمر مكروه وقبيح ومثير للاشمئزاز أكثر من الضربة نفسها.

وبعد ذلك، استطعت أخيرًا أن أوجه له أسئلتني بشكل أفضل: - إذا كان يشناق إلى أن يقوم بمغامرة أخرى مثل التي قام بها هذا العام؟

قال الصيدلي فقط:

- إنه عام غريب! غالبًا ما أكون في حالة معنوية جيدة هنا، مع ذاتي وعملي.
لكن هذا لا يكفي، فأشعر بالوحدة والذنب.
سألته:

- ذنب بسبب هذا أو ذاك الخطأ والتقصير في قصتك؟
أجاب قائلاً:

- نعم، لقد ارتكبت بعض الأخطاء في قصتي. وأود أن أرتكب مثل هذه الأخطاء مجددًا في الوقت المناسب. دائمًا حيث أكون وحيث أذهب أكون مستعدًا للمغامرة التالية.. للتسوية التالية. وربما يكون هذا طمع أكثر من كونه اشتياق. مثلما قال معلمي «براكلسوس» في الجزء الخاص بالفطر أن الشخص الذي يرى كنزًا يتطلع في اللحظة نفسها إلى المزيد. فقط لم أعد أجد تلك المقدمة الخاصة بالبراقة. في الوقت الذي دارت فيه أحداث قصتي كان عندي تلك المقدمة. ماذا عليّ أن أفعل في المقابل لأجد تلك المقدمة مرة أخرى؟
سألته من جديد:

- هل ما زالت الأرض الفضاء في غابة المطار، وشجر الجميز والبئر موجودين؟
أجاب الصيدلي:
- أزيل شجر الجميز وجُفف البئر من أجل إنشاء مباني سكنية.
سألته مجددًا:

- ماذا عن رفيقك في الرحلة، الشاعر وبطل العالم، هل تراهما هنا من حين لآخر؟
أجاب الصيدلي:

- نعم، في المطعم الموجود بالقبو. ولماذا أتجنبهما وأتجنب الذهاب إلى المطعم؟ إنهما معارف والتقيتهما بالصدفة، وهما حتى الآن لا يتعجبان من سماعي وأنا أتحدث. علاوة على أنني عادة ما أشعر بارتباط تجاه معارف الصدفة أقوى من الأصدقاء، وأكثر أمانًا.
سألته من جديد:

- وماذا عن مدينة الرياح الليلية؟
أجاب الصيدلي:

- أغلبية الشوارع هناك انتزعتها السلطة، وفي سبيلها لأن تكون دولة خاصة بها. أحد الحروب الحالية تدور هناك والمسرح الرئيس لأحداثها السهوب الخالية.

ومن هنا كان سؤالي فقط:

- وماذا بعد؟

قال الصيدلي:

- ذات يوم ستدخل المرأة التي ليست عدوتي منزلي.

سألته:

- وماذا بعد؟

قال الصيدلي:

- هل تشعر بهذا الشعور؟ بدا لي كأنه لا يوجد أشخاص في عمري نفسه؛ إما أن يبدو الجميع أكبر مني بكثير أو أصغر مني بكثير.

سألته:

- وماذا بعد؟

قال الصيدلي:

- لكن على الرغم من هذا، أشعر بتقدمي في السن، فالزخم الذي ما زال موجودًا - ربما أقوى من ذي قبل - لم يعد يصاحبه أي حافز لتحقيقه في الواقع. هناك شيء ما أمامي كأنه ينتظر أن أحركه، لكنني أتركه كما هو.

سألته:

- وماذا بعد؟

قال الصيدلي:

- إنك غالبًا ما تتذكر كيف انتهت الأحلام، لكنك لا تتذكر على الإطلاق كيف بدأت.

وبعد ذلك سألته مرة أخرى:

- هل تستطيع الغناء؟

نهض الصيدلي الذي كان الليلة السابقة يتحدث بمشقة، وصوته قريب إلى الهمس الناتج عن حركة شفثيه (مجرد رؤيته تؤلمك)، وانحنى فوق شجيرة السهوب واستنشق بعمق، وفي المقابل بدأ يغني بصوت منخفض رتيب. وهكذا غنى وهو واقف بصوت أقل قوة الأغنية التالية التي استغرق طويلًا في الإعداد لها وتدرج عليها في صمت: «سقطا في عناق بضعف شديد

وجدا في بعضهما سعادة غامرة

استلقيا معًا في إرهاق لا يوصف

واستيقظا في دهشة لا توصف
نظرا من جميع النوافذ بشغف
واستمررا في صبر لا يوصف
أحبا بعضهما بشكل لا يوصف
وحصلا على حريتهما معًا
وتحليا بشجاعة لا تُوصف
وشعرا معًا بامتنان لا يُوصف
وكافأ كلُّ منهما الآخر
تصبيا عرفًا
صرخا
بكيا
نزفا
صمتا
وحكى كلُّ منهما للآخر
انفصلا في حزن لا يُوصف

ذهب كل منهما في اتجاه مختلف في غضب شديد».

لم يأتِ أي زبون إلى الصيدلية حتى الصباح. كانت أول جملة ينطق بها الصيدلي في كل مرة: «ماذا تحتاج؟». صمتنا لساعات وانتظرنا في الظلام سقوط الجليد المعلن عنه في النشرة الجوية.

بدأ يوم مظلم صافٍ من أيام شهر ديسمبر في وسط مثلث مدينة «تاكسهام»، بين مدرج المطار وخط السكة الحديد والطريق السريع، وكلها يمكن سماعها جيدًا والتمييز بينها. رافقني الصيدلي حتى باب المنزل، وتذكرت الوقت الذي أردت أن أكتب فيه.. في الصباح.. بداية من رحلة الطيور الأولى. ووقفنا معًا لبعض الوقت، ثم قلت له: - السهوب في قصتك تعوقني عن الكتابة؛ أولًا- أين توجد سهوب في أوروبا؟ وثانيًا- الكلمة لا تحوز إعجابي. «السهوب».. الكلمة تبدو لي مستهلكة.

أجاب الصيدلي:

- لكن قصتي لا تدور أحداثها في المروج أو البراري. لقد كانت في السهوب. لقد ذهبت إلى السهوب. لقد عبرت السهوب. توجد كلمات لا يمكن استبدالها

بكلمات أخرى، واحتفظت بطريقتها في الكتابة عبر آلاف السنين، كلمات قليلة للغاية مثل كلمة «rossignol» بالفرنسية وتعني (طائر العنديل)، وكانت تُكتب في ملاحم العصور الوسطى بالطريقة نفسها التي تُكتب بها اليوم، أو كلمة «la joie» وتعني (السعادة) أو كلمة «la gué» وتعني (الأرض الضحلة)، أو كلمة «le droit» وتعني (القانون)، أو كلمة «perdu» وتعني (مفقود). وتوجد كذلك كلمة «السهوب» وكلمة «الناحية». تقريبًا كل المدن الإسبانية تقع في السهوب، على بعد مئات الأميال من السهوب من أقرب مدينة «أفيلا» و«سالامانكا» وكذلك مدريد. و«قصر الحمراء» في غرناطة يقع على رأس صخرة في أعلى السهوب. ومن «كاتدرائية - جامع قرطبة» ما هي إلا بضعة خطوات حتى تصل إلى النهر الكبير، ومن النهر يمكنك أن تصل إلى السهوب حيث تجر الماعز ضروعها الممتلئة. حتى هنا في «تاكسهام» توجد السهوب، أو كما كان يطلق عليها في الماضي أماكن ذات غطاء نباتي. وهي لا توجد فقط عند الجسر وفي المكان الذي يبقى خاليًا من أجل السيرك الذي لم يعد يأتي. وفي داخل المعمل توجد باقة من النباتات التي تنمو على السهوب، وليست أزهارًا. إنها تتكون فقط من الكؤوس والحوامل الفارغة غير المتحللة. لن ألقى تلك الباقة أبدًا. جلست ذات مرة في السهوب متكأ على شجرة تقف وحيدة، وتلقيت دفعة من الخلف، كأن حصانًا يحثني على مواصلة الركوب؛ هذه الدفعة كان مصدرها جذع الشجرة الذي حركته الرياح. إنها كانت وما زالت السهوب، ويجب أن تذكر كلمة السهوب في القصة. ويجب عليك أن تجعل قارئ قصتي متحمسًا للسهوب، وأن يخاف منها بالتأكيد بقدر ما. شم تلك الباقة، لا أعرف إذا ما كان الجزء الأكبر من الذاكرة مرتبطًا بحاسة الشم، لكن بالتأكيد فإن حاسة الشم حين يتم تدريبها بانتظام، تمنع النسيان. وهنا تذوق فطر السهوب المر المجفف؛ إنه جيد في علاج الصداع، والمشاعر غير الحقيقية، والمشاعر الوهمية، والبكم والعزلة.

- فكرت في أن المتحدث بهذه العبارة الأخيرة هو الصيدلي بوصفه الخبير في الوصفات. ونظرت الآن إلى الجرح الموجود في جبهة الصيدلي والذي لم يلتئم تمامًا بعد. قال الصيدلي بعد فترة صمت: - لقد كنت هناك في السهوب متحمسًا لذاتي بين الحين والآخر، وهذا أمر مدهش بالنسبة لرجل كبير في السن، ومدهش لي بصفة خاصة. صدقني، أو انظري.. لا يمكن أن تثق في شخص لا يتحمس لذاته على الأقل بين الحين والآخر.

- قبل رؤية أول طائر بفترة طويلة، ظهر شخص يركض.

- هل في «تاكسهام» أشخاص يركضون؟

- ويلهث كأنه ينادي أمه وسط الحرب العالمية الثانية.

تحدث الصيدلي مجددًا بعد فترة صمت:

- علاوة على ذلك يجب أن تذكر كلمة «تمهل» كثيرًا في قصتي. «ثم تمهل». فهي كلمة ألمانية جميلة، ثم إن التمهّل يضفي قوة، ويؤدي إلى الانخراط في الأحداث، في الأحداث العمياء، في أحداث العالم العمياء، في الهروب من المظاهر، في الحديث، انخراط في الذات، والتمهل مفيد في تسارع ضربات القلب، ورنين الأذن وضغط المعدة والكثير غيرها.

وبعد أن تمهل الصيدلي لفترة أطول، أعطاني وصفة أخيرة: - اكتب فقط قصص الحب.. قصص الحب والمغامرات ولا شيء سواهما. ذهب شخص. أصبح المنزل صامتًا، لكن هناك شيء ناقص؛ لم أسمع صوت باب معين يُغلق.

قال أحدنا:

- الثلج!

ورأينا في الواقع ندفة ثلج تومض الآن. قلنا معًا: - ها هو الثلج يتساقط! والآن، ظهر أخيرًا في هذا الصباح أول طائر، غراب سمين كان يصرخ ويزمجر ويمد رأسه كما لو كان يخنق ثعبانًا.

قال صيدلي «تاكسهام» بصوته المعطل منذ فترة طويلة وعليه أن يجد طريقة أولًا للخروج منه: - اصرخ وزمجر أيها الغراب! أعرف أن باستطاعتك كذلك فعل أشياء أخرى.

كُتبت في صيف وخريف عام ١٩٩٦.

الملاحظات

[←1]

«أوريون» هي كلمة يونانية الأصل، وهي موجودة في الأساطير اليونانية القديمة، وترمز لصياد عملاق وضعه «زيوس» بين النجوم باسم كوكبة أومدأر أوريون.